الملحق الثقافي

ملحق أسبوعي يصدر كل ثلاثاء عن جريدة الثورة - العدد 1087 2022/3/15

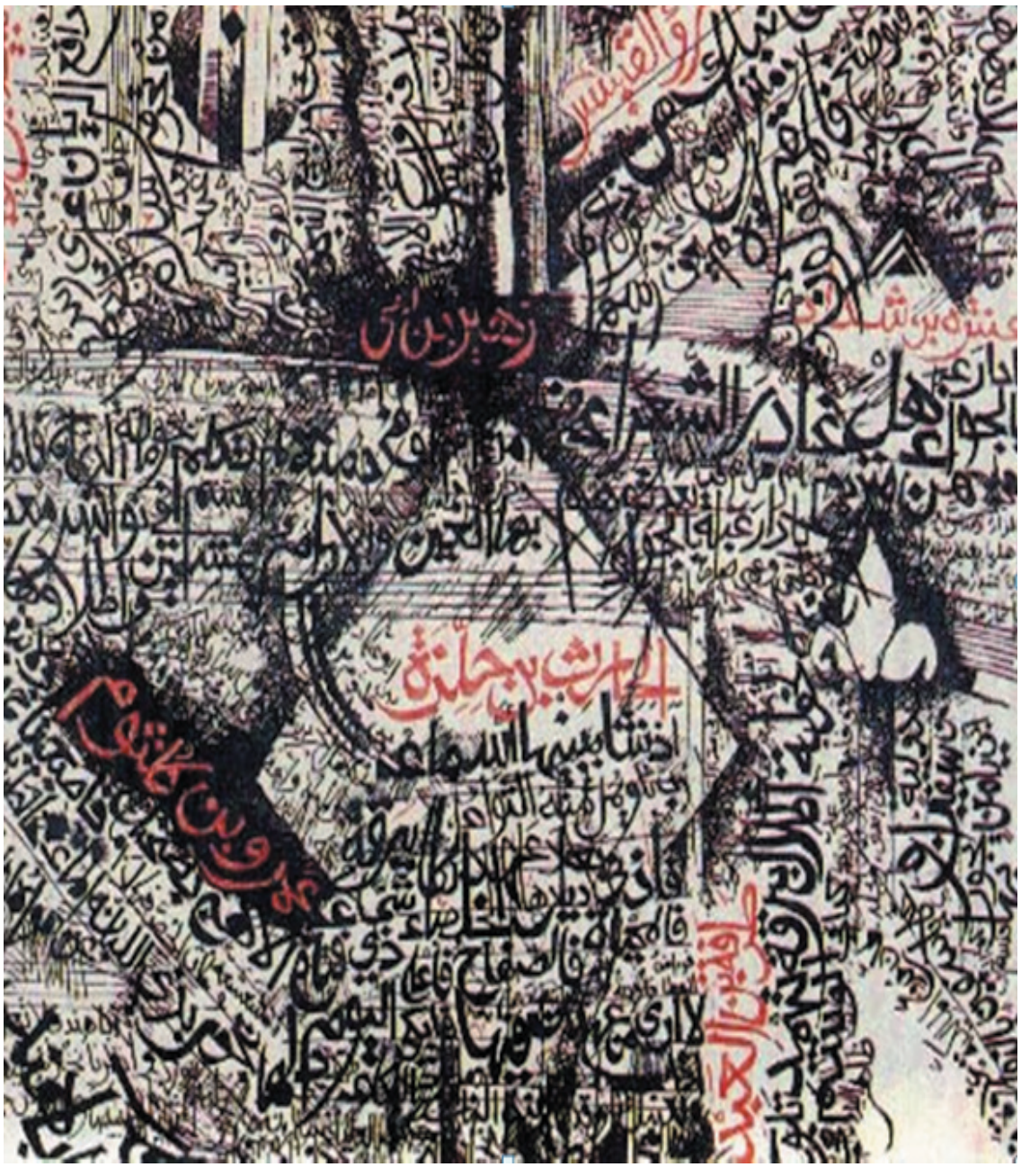

ملف العدد

الشعر في يومه العالمي

أول الكلام

عن المطبوعات الثقافية...

▪ ديب علي حسن

مما لاشك فيه أن المطبوعات وخاصة الصحف، قد بدأت ثقافية فكرية إبداعية، وتولى الكتاب والمفكرون الإشراف عليها سواء في الغرب أم الشرق.

ومن يتابع تطور الصحافة الورقية يجد أن معظم الكتاب المشهورين كانوا المحررين لها أو أصحابها.

هل نذكر بالهلال المصرية والثقافة السورية، وفي لبنان والعراق وغيرها من الدول العربية؟!.

ومع تطور الصحافة لتغدو صفحات تؤرخ نبض الحياة اليومية تأخر الشأن الثقافي ليكون جزءاً وليس كلاً كاملاً..

اليوم بمرور ٤٦ عاماً على انطلاقة الملحق الثقافي لصحيفة الثورة وكان ذلك في آذار عام ١٩٧٦م يحق لنا أن نطرح عشرات الأسئلة: هل بقي للصحافة الثقافية الدور نفسه... وما الذي يمكن أن يؤديه ملحق ثقافي في عصر التواصل الرقمي..بل السؤال الأكثر ضرورة:هل نمتلك الجرأة التي كانت يوم انطلاقته..؟

لسنا بصدد الإجابة عن أي من الأسئلة لأن الإجابات تتعدد وفق الرؤى والاتجاهات..

ولكن على الأقل يجب القول إن الضرورة تقتضي أن يكون للشأن الثقافي والفكري في أي مطبوعة مكانة ما يجب تستمر وتتطور إلى أن تصل نقطة التفاعل التام الذي يجب أن يكون قادراً على حفر مجراه في هذا الخليط العجيب من الادعاء الإبداعي.

ومما لاشك فيه أن أي عمل ثقافي أو فكري دون حامله الإعلامي لا قيمة له، بل هو طائر مهيض الجناح ..والإعلام بلا ثقافة ثرثرة جوفاء، أي إن كل إعلامي مثقف بالضرورة وليس كل مثقف إعلامياً..

ونحن نعبر العام السادس والأربعين لصدور هذا الملحق وبما مر به من توقف وعودة وتغير الظروف نعرف أن الصحافة الثقافية ليست بخير أبداً ، وأن في فضائها ثمة زرازير خالت نفسها شواهينا ..ونعترف أيضاً أننا نحبو ونحاول أن نقدم وفق الإمكانات المتاحة أقصى ما نستطيع ودائماً الأشياء مقمطة بنواميسها، فإذا استعرت سيفاً بتاراً ونبا ساعدك فهذا لا يعني أن السيف مفلول بل ببساطة: لم تضرب بساعد صاحبه ولا تهيأت لك ظروفه، ومن الحكمة أن نقول: نصف الحقيقة حيث لا نقف ...

وبيوم الشعر تحية لكل شعرائنا من رحل ومن بقي ...يوم الشعر يقول الكثير فما حاله اليوم..؟

ماذا يقول الشعر وكيف يقول ..؟

من آثار دوستويفسكي المجهولة؟

أدونيس: الشعر أعلى مراتب الإبداع

نزار قباني: شعري أنا قلبي

رئيس التحرير
أحمد حمادة
مدير التحرير
معد عيسى
أمين التحرير
محمود ديبو
إشراف
ديب علي حسن
الإخـــراج
هدى نصر شمالي

توجه جميع الرسائل
باسم هيئة التحرير
دمشـــق ص.ب ٢٤٤٨
هاتف ٢١٩٣٢٢٢

معرض

مقتنيات تعود لـ ٣٥ عاماً ضمن معرض (استعادي) لصالة عشتار

زينت ٤٥ لوحة لعدد من الفنانين التشكيليين الكبار من أصحاب الأثر في النهضة الفنية السورية المعاصرة جدران وأروقة صالة عشتار خلال معرض "استعادي" أقامته في ذكرى تأسيسها.

وضم المعرض أعمالاً تعود لـ ٣٥ عاماً منها للفنان فاتح المدرس رائد السريالية في سورية وأول من أدخل التراث إلى الفن التشكيلي وأدهم إسماعيل أحد أعمدة النهضة الفنية في البلاد وغيرهم ممن شكلوا إرثاً تاريخياً مهماً.

وبين الفنان التشكيلي ومدير الصالة عصام درويش أن هذا المعرض يأتي لعرض مقتنيات الصالة منذ افتتاحها عام ١٩٨٧ وحتى يومنا هذا حيث أقامت مئات المعارض التشكيلية لفنانين سوريين وعرب وأجانب لتسهم مع باقي الصالات العامة والخاصة في الإضاءة على الاتجاهات التشكيلية المعاصرة.

المعرض الذي حمل عنوان "٣٥ عاماً عشتار" يلقي الضوء وفقاً لدرويش على بعض التجارب المهمة لفنانين سبق وعرضوا فيه ولهم سمعة تشكيلية واسعة مثل محمود حماد-نصير شورى- نعيم إسماعيل- رشاد مصطفى- فايق دحدوح- نذير إسماعيل- غسان سباعي- خزيمة علواني والكثير من التجارب لأجيال تشكيلية لاحقة.

وحول تجربته الفنية الخاصة التي احتوى المعرض جزءاً منها ذكر درويش أنها ما تزال تتطور وتشهد عدة نقلات كان آخرها مجموعة "وجوه عربية معاصرة" وتتناول ما شهدته المنطقة العربية وأبناؤها من محن في السنوات العشر الماضية.

بدوره أشار الفنان التشكيلي أسامة دياب إلى أن عدداً كبيراً من الفنانين التشكيليين قدموا تجاربهم القيمة في هذه الصالة التي ساهمت في انتقاء وعرض الأعمال المتميزة والتجارب الجادة والمتواصلة وهي تعتبر رافداً مهماً للحركة التشكيلية في سورية

إصدار

دراسات نقدية

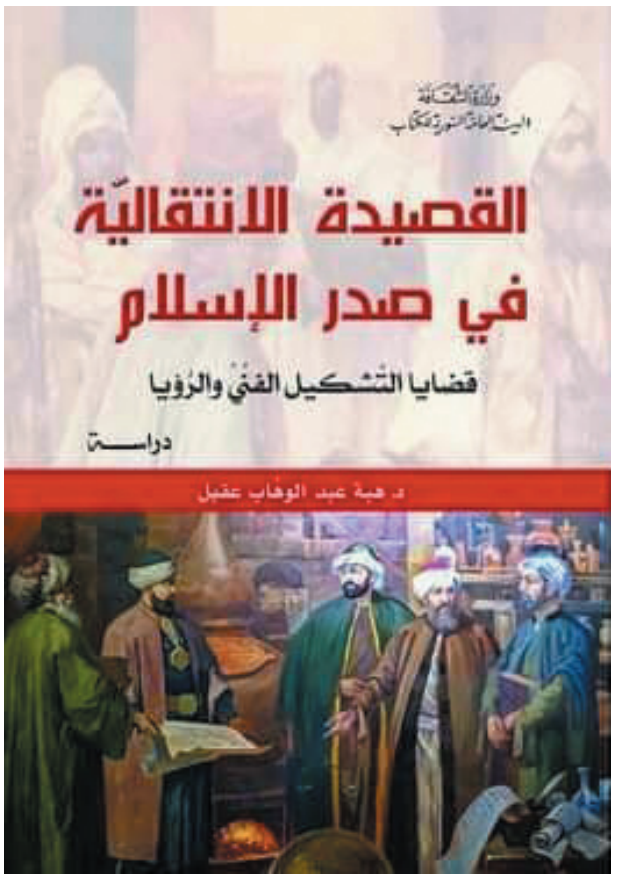

مازالت الدراسات النقدية تتابع الحفر في متن الشعر العربي القديم وتجد المزيد من العناصر الجمالية فيه وفي هذا المنحى يأتي كتاب (القصيدة الانتقالية في صدر الإسلام... قضايا التشكيل الفني والرؤيا)، تأليف: د.هبة عبد الوهاب عقيل.الذي صدر عن الهيئة العامة السورية للكتاب بدمشق

تصميم الغلاف: عبد العزيز محمد.

حملت القصيدة الانتقالية في صدر الإسلام ملامح مرحلة الانتقال وأخلاطها، وكانت موازاة فنية للواقع التاريخي بما فيه من خصائص جديدة على المستويات كلها، الاجتماعية والاقتصادية والدينية والفنية. وتميّزت بنسيج فريد له ملامحه الخاصة التي هي مزيج من ملامح قديمة وأخرى جديدة، وبدا فيها اتجاه جديد يشق طريقه بصعوبة وسط التقاليد والرسوم الثابتة، في جوانب البنية، والصور الفنية، والظواهر الأسلوبية، واتجاهات الرؤيا، فأكّدت أن الفن في عصر معقّد لا يمكن أن يكون متجانساً.

كتاب (القصيدة الانتقالية في صدر الإسلام... قضايا التشكيل الفني والرؤيا)، تأليف: د.هبة عبد الوهاب عقيل، يقع في ٤٢٣ صفحة من القطع الكبير، صادر حديثاً عن الهيئة العامة السورية للكتاب ٢٠٢٢.

كتاب العدد

حسب الترتيب الهجائي

بديع صقور
ثائر زين الدين
سلام الفاضل
سلوى الحلو
فاتن دعبول
عمار ابراهيم
ليندا إبراهيم

رسائل إلى شاعر ناشىء.. لماذا نكتب ..؟

في عام ١٩٠٣عندما كان الشاعر ريلكه في أوج شهرته ومكانته الأدبية العالمية، وكان في سن الثامنة والعشرين، مرّ بمرحلة من الضجر أو الخمول الإبداعي، فجمعته مراسلات مع كبار الأدباء والفنانين، تزجية للوقت وتحفيزاً لنشاطه الفكري والإبداعي، وهذا لم يمنعه من رسائل أيضاً مع شبان مغمورين وشعراء ناشئين، وكان من ضمنهم فرانز كابوس، الذي ستصبح رسائل ريلكه إليه مرآة كونية تنصهر فيها الأنا مع الآخر، التي ستعتبر في ما بعد من أهم منجزات ريلكه الفكرية والفلسفية.

لم تكن مجرد رسائل أو كتاب يتضمن أدب المراسلات مع شاعر شاب، بل تمحور الكثير من الرسائل حول مواضيع جوهرية تلامس الإنسان والمصير الإنساني، نابعة من رؤية ريلكه الفلسفية العميقة في الحياة، ومن حدسه وتأملاته في الأشياء والموجودات، أضف إلى ذلك طاقة كبيرة تنفجر من وعي ريلكه الحاد وفكره السامي في تقديس الحياة وحبها، فالحياة دائماً على حق حسب تعبير الشاعر، وما يحدث للإنسان من أمراض وحروب وقلق وكآبة هي مجرد تحولات كبرى، تعقبها ولادات جديدة، والحياة تحول دائم كل جيد أو سيىء هو تحول أيضاً، فالأشياء يجب أن تحدث وأن تمر على الإنسان، دون تدخل العقل في إصدار الأحكام والمحاكمات، بل لا بد أن يكون مراقباً ذكياً لتمرحل الإنسان في دوامة الحياة الشائكة والمعقدة، كما أنه يؤكد على قوة الإرادة الإنسانية، تلك الإرادة التي تبقي الإنسان حراً رغم القيود التي تكبل العالم والبشر.

يركز ريلكه كثيراً في إجاباته عن رسائل الشاعر الشاب فرانز كاوبوس على مفهوم فرح الكينونة والتسليم باللحظة الراهنة خارج الزمن، التي من الممكن أن تصبح لحظة أبدية في حياة الإنسان. «يجب أن تعيش الحياة لأقصى حد، ليس بناء على كل يوم، ولكن بناء على عمق كل يوم».

الإيمان الحقيقي والعميق بفكرة ترافق الإنسان طيلة حياته، قد يمنح حياة المرء إشراقاً وإيقاعاً ساحراً، عكس اللهاث المستمر وراء الالتماعات الكاذبة، والانجرار إلى أفخاخ ينصبها الوهم في خريف العمر. نستطيع أن نرى هنا كم بلغت بصيرة ريلكه من الغزارة والاتساع العظيم، فصار يرى في الفن والجنس تكاملاً إبداعياً، وشهوة معرفية قادرة على الخلق والولادة، سواء أكان في الجسد أم الروح، فكلاهما يتساوى في الغاية الوجودية والمعرفية. يعبر ريلكه بطريقة عدمية استثنائية عن امتنانه العظيم للحياة وعن فرح الكينونة الذي يجب أن يغمر الإنسان حتى في أقصى حالاته تشاؤماً وكآبة.

«إلهي كم تكمن روعة الحياة تحديداً في عدم قدرتنا على توقعها، وفي الخطوات الغريبة النابعة من عمى أبصارنا أحياناً. خلقت هذه الحياة بصدق شديد لكي تفاجئنا،لا لترعبنا. ينبغي على المرء تحويل أكبر إمكانية في داخله إلى مقياس حياته، لأن حياتنا فسيحة جداً، للحد الذي يمكنها أن تسع أكبر قدر ممكن من المستقبل الذي باستطاعتنا تحمله».

يصف ريلكه في إحدى رسائله، أن الحزن وجود غريب يتسلل إلى بقعة حساسة فينا، شيء جديد ومجهول تنمو مشاعرنا خلاله في صمت وارتباك محرج، فالحزن يمر بنا بسبب ذلك الوجود الذي أضيف إلينا وولج إلى قلوبنا، وغاص إلى أعماقنا، فلم يعد بالإمكان تمييزه.

لماذا نكتب وما الدافع الحقيقي للكتابة؟

تبتدىء أولى رسائل ريلكه إلى الشاعر الشاب في باريس ١٧ فبراير/شباط ١٩٠٣ بالتأكيد على الدافع الحقيقي للكتابة، فهو يطلب منه ألا يسأله، وألا يطلب منه النصح والمساعدة، بل عليه أن يلتفت إلى ذاته، وملاحظة هل هذه الكتابة ترسل جذورها إلى الأعماق؟ اسأل نفسك هل ستموت لو حرمت منها؟ إن العمل الفني رائع فقط لو نشأ من دافع الحاجة. في هذه الرسالة ومعظم الرسائل يؤكد ريلكه على الشعرية وأن تحيا شعرياً على هذه الأرض وفي الأعماق، فالشعر الذي يبقى ملاصقاً للكينونة وحركة الأشياء من حولنا يمنحنا النضج المختلف والوعي الصافي النقي، والإدراك المتوهج، إنه الوجود المثالي الذي تخلقه المخيلة العظيمة، ويبقى مرادفاً وملاصقاً للوجود اليومي والمعاش، حتى في أدق وأبسط التفاصيل اليومية. إضافة إلى ذلك فالكتابة عند ريلكه أيضاً عبارة عن خبرات متراكمة من القراءات والتجارب الشعورية والحسية، والوقوف الحقيقي عند حافة الخطر، ومواجهة الصعاب، ومن هنا تنشأ بذرة الإبداع الذي يغذيه الجوع المعرفي والأسئلة الوجودية الكبرى. كما أنه لا يخفي تأثره العميق وإعجابه الدائم بكتاب وفنانين منحوه الخبرة وخلود الإبداع مثل الروائي والشاعر الدنماركي جيكبسون والنحات الفرنسي رودان.

وفي رسالة مؤرخة بتاريخ ٢٣ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٠٣ ينصح ريلكه الشاعر الشاب فرانز كاوبوس أن يكون قريباً من الجمادات في وحدته، وأن يربي عزلته الباطنية الفسيحة مع هذا السكون الغامض والمؤلم، الذي ينبض في قلب الأشياء وجمودها المخيف، وهذه أيضاً إحدى تجارب ريلكه الشعرية العظيمة في تحويل الجمادات إلى رموز شعرية ونفسية.

عزيزي السيد كاوبوس:

إن لم يكن هناك ما يمكنك مشاركته مع الآخرين، فحاول أن تكون قريباً من الجمادات، فهي لن تهجرك، وستظل هناك الليالي والرياح التي تتحرك عبر الأشجار وفوق الأراضي، كل ما في العالم

من جمادات وحيوانات مازالت مملوءة بالأحداث التي يمكنك أن تكون جزءاً منها.

الحزن واليقظة الداخلية

يصف ريلكه في إحدى رسائله، أن الحزن وجود غريب يتسلل إلى بقعة حساسة فينا، شيء جديد ومجهول تنمو مشاعرنا خلاله في صمت وارتباك محرج، فالحزن يمر بنا بسبب ذلك الوجود الذي أضيف إلينا وولج إلى قلوبنا، وغاص إلى أعماقنا، فلم يعد بالإمكان تمييزه، إنه في مجرى دمنا فعلياً، فالحزن هو لحظات من التوتر نشعر بها كالعاجزين؛ لأننا لم نعد نصغي لعواطفنا المدهشة والمفعمة بالحياة.

لكن ريلكه لم يستسلم للحزن وطاقته التدميرية، بل على العكس إنه يؤنسن الحزن، ويضفي عليه طابعاً سحرياً وجمالياً، فهذا الوجود المرعب والغريب الذي سكن أعماقنا وبدأ بتغيير مسارات حياتنا، عندما يبدأ بالخروج منّا إلى الآخرين، سوف نشعر بمدى قوة علاقتنا وقربنا منه في دواخلنا، ونكتشف بأن ما حدث معنا لم يكن غريباً عنا ومن الخارج، بل كان ملكاً لنا في الأصل منذ مدة طويلة.

عزيزي السيد كاوبوس:

«لقد مررت بالعديد من الأحزان الثقيلة وها هي قد مضت، ولكنني أريدك أن تسأل نفسك ألم تُزل هذه الأحزان الثقيلة في الواقع بإرادتك أنت؟ ربما تغير العديد من الأشياء في داخلك، لقد خضعت لتغيرات خطيرة بينما كنت حزينا. كل المشاعر التي تجتمع عليك وتسمو بك هي نقية حتماً. وحده غير النقي هو ذلك الشعور الذي يدرك جانباً واحداً من كينونتك فيشوهك. لهذا السبب من المهم جداً أن تكون منعزلاً ويقظاً عندما تكون حزيناً».

نزار قباني: شعري أنا قلبي و يظلمني من لا يرى قلبي على الوَرَق

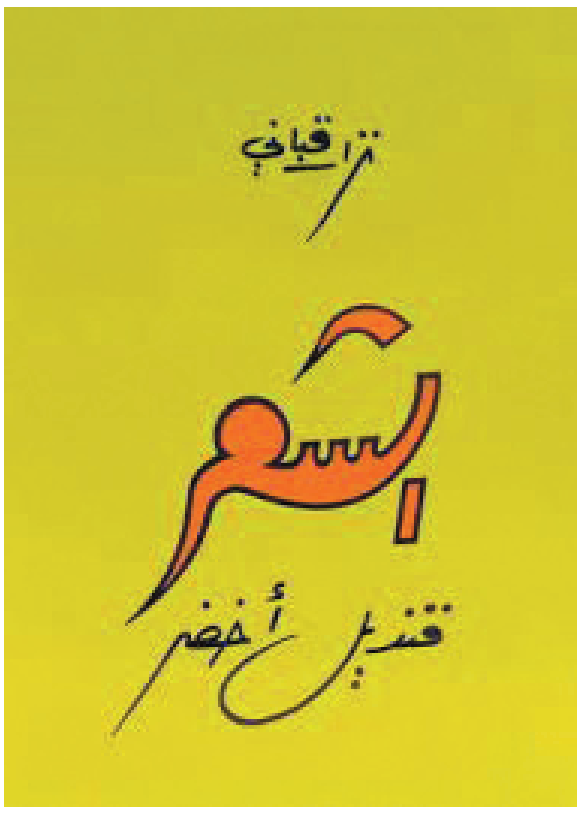

يقول نزار «الشعر انقلاب بالكلمات يحاول تغيير وجه العالم ..انقلاب يقوم به عاشق..ليحوّل الأرض كلّها إلى بستان للعشق.

الشعر خطاب إنساني يتوجه إلى (الآخر).. و لا قيمة لشعر يخاطب الفراغ ..أو الملائكة ..أو يخاطب نفسه.

الشعر فعل رقيّ و حضارة ، و بطبيعته مع الشمس ضد العتمة ..و مع الوردة ضد المسدّس و مع الليبرالية ضد القمع..و مع الحب ضد الكراهية..و مع المشنوق ضد حبل المشنقة». و نزار هنا لا يكاد يخرج عن تعريف الجاحظ السابق الذكر « الشعر فضيلة العرب» إلا بتفصيل ما أجمل مع التمثيل لبعض معاني الفضيلة.

« الشعر ..خطاب نكتبه للآخرين..خطاب نكتبه إلى جهة ما..و المُرسَل إليه عنصر هامٌ في كل كتابة ، و ليس هناك كتابة لا تخاطب أحداً ..و إلاّ تحولت إلى جرسٍ يقرع في العدم. وأزمة الشاعر الحديث الأولى هي أنه أضاع عنوان الجمهور..» و يضيف متسائلاً و مجيباً في الآن نفسه « لماذا يعيد موزّعُ البريد قصائد شعرائنا إليهم؟ لأنهم نسوا عنوان الشعب».

« و الشعر هو الفن الوحيد الذي لا ينجح فيه الخداع.

من أول بيت في القصيدة يتعرّى الشاعر تماماً أمام الجمهور، و من سابع المستحيلات أن يبقى شاعرٌ ثلاثين عاماً بغير ثياب أمام جمهوره» .

« إن عبقرية الشاعر تتجسد في قدرته الدائمة على اختراع كلام جديد لمواضيع قديمة فالحبّ مثلاً مؤسسة عتيقة إلاّ أنها تحتمل دائماً كلاماً جديداً.. لا قيمة لشعر يعيدُ اكتشاف الأشياء المكتشفة، و يستعمل حجارة العالم القديم كما هي . و لتقريب المعنى للذهن أكثر يعقد مقارنة بين الطبيعة و الشعر لبيان الفرق بين الشعر المجدّد و الشعر المقلّد.

والشعر.. ماذا سيبقى من أصالته؟

إذا تولاه نصابٌ ... ومداح؟

حملت شعري على ظهري فأتعبني

ماذا من الشعر يبقى حين يرتاح

أدونيس: الشّعر أعلىَ مَرَاتب الإبداع وأرقاهَا!

يرى أدونيس : أنّ الرّوائيّين ليس لهم أيّ تأثير كبير في المجتمع المعاصر، حتى وإن كان لهم قرّاء أكثر ممّا لدى الشعراء، فالروائيّون يمرّون فى عقل أيّ إنسان بطريقة أفقيّة وسطحيّة، وهم يؤثّرون في القرّاء المستهلكين، أمّا الشعراء فإنهم يؤثّرون في القرّاءالمبدعين، فسرد العالم يعني نسخه، وإذا كنّا ما نقوم به هو استنساخ الحياة، فإننا لا نقوم بأيّ شيء حقيقيّ، فالفنّ والإبداع ينبغي لهما خلق طاقة منتجة، والشّعر يتميّز برؤية خاصّة وشاعرية نحو العالم.

وعندما سئل أدونيس عن دور الشعر في المجتمع المعاصر، قال :» الآن يبدو أنه لم يعد للفلاسفة والعلماء ما يقولونه ،ولكنّ الشّعراء نعم «، ويرى كذلك أنّ الشعر لا ينطوي على جانب علمي، ولهذا فقد لا يكون فى مقدوره تغيير العالم، إلاّ أنه يمكنه تغيير رؤية الإنسان حيالَ هذا العالم، ونوعية علاقاته مع الآخرين».

وقال :» إنّ علاقته بالشّعر هي أكثر غنىً وثراءً الآن ممّا كانت عليه عندما بدأ ينظم الشعر منذ سنوات بعيدة خلت، وطالب أدونيس بمزيد من الحوار البنّاء، والتفاهم المتبادل، وقال إنّ لديه الثقة الكاملة فى الطاقات البشرية المتوفّرة في حوض المتوسّط شريطة ألّا نظل حبيسي التجارة والعسكرة، وقال يبدو للناس أنّ هناك ثقافة متوسطية واحدة، ولكن هذا ليس صحيحاً، فالمتوسط يقدّم لنا ثراءً، وتنوّعاً رائعين، ولهذا ينبغي لنا أن نهتدى لإيجاد طريقٍ للتفاهم والحوار».

الشعر بصمة الزمن الأبدي

سلام الفاضل

جمال أبو سمرة

أوس أسعد

حينما تنهدم النفوس تُصلح ذاتها بالشعر، وتُرمم بنيانها بعبق الكلمات الموزونة وجميلها، فتستعيد الروح ألفتها، ويستعيد القلب صوت نبضه، ويشرّع الفؤاد نوافذه ليطل على مروج من ألق.

فالشعر كان ديوان العرب الذين خطوا حروفه بمهجهم، ونثروا على بياض صفحاته أساطير عشقهم، ولوعات قلوبهم، وأمجاد حروبهم، وجلجلة مديحهم أو ذمهم، وعلى شرفه عُقدت المجالس، وأقيمت الأسواق، ومُنحت العطايا، وتناثرت الهبات، فكان يُعزُّ به من يشاء، ويُذلُّ به من يشاء. ولكن هل ما زال الشعر يحمل اليوم هذا الوقع؟ وهل ما زال كائناً أديباً يُحتفى به، ويهلل الناس لناظميه؟؟

سؤال طرحناه، وشعراء العالم يحتفلون في هذه الآونة باليوم العالمي للشعر الذي يصادف في ٢١ آذار من كل عام، وفي الإجابة عنه رأى رئيس فرع القنيطرة لاتحاد الكتّاب العرب الشاعر د.جمال أبو سمرة: «إن العالم يحتاج إلى الشعر، فهو آية كمال الأرواح واكتمالها، والقادر على التخفيف من قبح هذا العالم، بل القادر على إضافة مساحات من الجمال إليه، أمام الرغبات الجامحة في اختلاق الحروب والدمار والحطام...».

وأردف: «وأن تقول شعراً يعني أن توسّع هذا المدى كثيراً، وأن ترفع سقف العالم فيصبح أرقى وأعلى وأنقى، فيتدفق الإلهام والخلق والعطاء على حساب اليباب والاستلاب...».

أما الشاعر أوس أحمد أسعد فإنه يفتتح إجابته عن هذا السؤال بمقولة الأديب الروسي الكبير «دوستويفسكي»: (لن ينقذ العالم سوى الجمال)، موضحاً أن تعاقب فصول السنة، وضياء الشمس، وتدرجات تشكّل القمر من طفولته، وحتى اكتمال رشده كبدر، ما هي سوى تحيات وحفاوات شعرية، وأن الاحتفاء بالشعر وبيومه يعني في أقل تقدير أن الإنسان من حيث الجوهر لم يستلبه التشيؤ، بشكل كامل، أمام فورة التقانات الذكية، وسيطرة القيم الاستهلاكية لمجتمعات الفرجة على كل شيء. ويتابع: «وهذا إذاً فأل جيد، وهو اعتراف إنساني بحقيقة الشعر الجوهرية بوصفه حالة لصيقة بالجوانية البشرية، والأعماق السحيقة التي يستحضرها الكائن كلما فاء إلى إنسانيته وكينونته، ومعنى ذاته ككائن منتج للجمال والفن... وعليه تأتي الحفاوة بالشعر في هذه المرحلة العالية التلوث والقبح كاعتراف عالمي له صفة الديمومة بقيمته الجوهرية، وضرورته الوجودية لكائن مهشم الروح أدمته الحروب والأوبئة، والمجاعات وكل أشكال الفتك، وأوصلته إلى حواف الهاوية، بل أسقطته عميقاً في جوفها المظلم...».

ولكن أمام هذا كله، وأمام هذه المكانة الكبيرة التي يحتلها الشعر في النفس الإنسانية، هل ما زال الشعر بخير؟ وهل ما زال له عاشقون ومريدون، ولا سيما أننا بتنا اليوم في عصر متغيّر الأهواء، والميول، وأمام قارئ ملول ذي نَفَس قصير؟ د.جمال أبو سمرة يعقّب على ذلك بالقول: «الإجابة في الحقيقة ستبدو منقوصة، ولا فائدة منها ما دامت لا تركن إلى سؤال أكثر جدوى؛ ألا هو: هل النقد بخير؟ هل ثمّة نقّاد يرصدون المشهد الثقافي، ولا سيّما الشعري منه، ليفرزوا الغثّ من السمين في هذا الزحام، بل الركام مما قيل ويقال، في بطون الكتب وجدران (السوشال ميديا)...». ويضيف: «غير أن الإجابات الانطباعيّة تقودنا إلى القول: إن المشهد اليوم يختلط، مع تغيّر أنماط التلقي والتداول الأدبي، إذ لم تعد الذائقة التي تتلقى قادرة على استيعاب المنتج الأدبي بوسائله الشفاهية البدائيّة، خاصّة أنّها تميل إلى النصوص السريعة القصيرة، التي تحتفي بالآني والزائل والمباشر على حساب الإدهاش والتكثيف والابتكار...». مبيّناً في ختام كلامه: «إن الشعر، مع هذا، سيبقى في ملكوت الإبداع الأعلى، ما دام كلُّ الناس حتى ممّن لا يملكون الموهبة، أو من أنصاف الموهوبين يطمحون إلى أن يصبحوا شعراء، وأن يُطلق عليهم لقبَ الشاعر... ومن هنا ندرك أن للشاعر هالته التي لا تنطفئ، وتبقى محتفظة بأسرارها الغامضة التي لا تنكشف إلا لأصحاب الرؤى والمشاريع الإبداعيّة».

بدوره يؤكد الشاعر أوس أسعد أنه ونتيجة لكل ما قيل: «فالشعر اليوم ليس في أسوأ حالاته، بل هو في أعلى حالاته الدرامية، إذ لا يليق بكائن الحروب سوى المراثي..». ويتابع: «وعليه، كي تشرق شمس الشعر، وتحلق طيوره من جديد فلا بد أن يكافح الشعراء لإعادة ترميم معادلة الشعر المهدورة، والنضال لوضعه على سكته الصحيحة انتصاراً للجمال ضد القبح، وللحياة الجميلة ضد العدم والعبثية والمجانية، وللبناء ضد الهدم..إلخ. وبذلك تستقيم الحياة، وتمتدح إلى الحد اللائق بإنسانيتها الحقيقية».

وفي الختام نستطيع القول إن الشعر وإن خفت نجمه، أمام ازدهار أجناس أدبية أخرى قد تفي من وجهة نظر الكثيرين بمتطلبات العصر الحديث، إلا أن حالة الإدهاش النفسي المشبعة بالصور الرائعة، والتراكيب المتقنة، والرموز المدهشة لن يستطيع سوى الشعر، والشعراء تحقيقها، فكل عام والشعر وشعراء العالم بألف خير.

وتر الكلام

أضواء ليلية...!

سعاد زاهر

كل ما يفعلونه قبل البدء بالإقلاع لم تسمع منه شيئاً، كان ذهنها في مكان آخر ...يؤكد لها « ما من سبيل آخر» عليها أن تفعل ذلك...

أيقنت في قرارة ذاتها بصواب ما تقوم به...أغمضت عينيها كما تفعل عادة أثناء الإقلاع وبدأت بأدعية نسيت معظمها فالرعب سيطر عليها...!.

ربما هي آخر من فتحت عينيها إن كان هناك من أغمضهما سواها، حسدت جارتها التي تجلس بجوار النافذة كيف تمكنت من تصوير مشهد الإقلاع قائلة لها قد لا يتكرر..!.

لم تبال...بأي شيء وهي تأكل وجبتها الصغيرة من الدجاج والأرز، شربت جرعة ماء صغيرة، ولم تستفق إلا حين بدأت الطائرة بالهبوط...

وحين سارعت بالخروج من المطار الكبير وهي تجر حقيبتها الوردية الصغيرة شعرت أنها ولدت للتو...كأن زهايمر عصف بها، وشعرت بتحرر داخلي لامثيل له، غادرتها كل تلك الخيبات المريرة، و الكآبات المقيمة...

ياالله كيف يمكن لنقلة مفاجأة أن تشعرك أن كل ما مضى مجرد شظايا تطأها قدماها، استقلت أول سيارة، اتجهت إلى الفندق، استغربت المسافة القصيرة، حين وصلت لم يبد من ردهة الفندق شيء خاص، إلا أنها حين فتحت باب تلك الشقة الفندقية الصغيرة، خفق قلبها للمرة الأولى منذ عشر سنوات، والغريب أنه خفق لهذه الشقة الغالية نسبياً، دون أن ترتب أغراضها حاولت فتح الباب المفضي إلى شرفة صغيرة فيها كرسيان وطاولة صغيرة أنيقة للغاية مع غطاء فاتح...ما توج المنظر أنه يطل على أبراج دبي التي لطالما تمنت أن تراها يومياً..

جلستها المسائية والأنوار تحيط بها من كل جانب بكثافة غريبة، بينما ضوضاء الشارع تخفت مع ستار الليل، الذي تشعر به هو مضاء بطريقة غريبة..جعل داخلها يرقص ها قد عادت إليها أحاسيسها، أم أنها يا ترى أحاسيس الليلة الأولى..!.

صباح اليوم التالي: ما أن فتحت عينيها ...حتى ارتدت ملابسها بسرعة غريبة، منطلقة لتنجز أولى خطواتها، شعرت أنها غريبة في بلاد كبيرة، تسير بخطا مرتبكة باتجاه أنوار قد تتخطى لياليها لتصبح دائمة الحضور في حياة تصر على أن تنفض فيها كل ما علق بها من ماض لايزال يلتصق بها في الأمكنة الاعتيادية...!.

حبر أخضر

ماذا يقول الشعر وكيف يقول؟

بقلم:الدكتورة نجاح العطار

كثير من الحبر والورق أهرق حتى الآن في موضوع الشعر، وبالتحديد في جزء خاص من هذا الموضوع هو الغموض والوضوح، حتى ليخيل إلى القارئ أننا نعود إلى تلك المعركة القديمة التي ثارت في الوطن العربي حول مفهوم الأدب التقدمي وغير التقدمي.

وحول الالتزام واللاإلتزام، فكانت حصيلتها كلها جملة من التعريفات لم تغن الموضوع كما أغنته الأقلام المبدعة التي كتبت الأدب التقدمي فقدمت بذلك مثالا له، وكتبت الأدب الملتزم فقدمت مثالاً له وكان هذان المثالان في النتائج التالية خير شاهد على مدى مافي تقدمية الأدب والتزامه من واقعية وصدق وأصالة، ومافي نقيضه من زيف، لأنه يتصدى لمهمة خاسرة، ومافي مقولة الالتزام أو عدمه من سفسطة لأن كل أدب في نهاية الأمر ملتزم على نحو ما.

ولقد ذهب أنصار الغموض في الشعر إلى أنهم يريدون جماليته وحداثته لأن الوضوح يبسط هذا الشعر فينفي منه ذلك الإحساس المتوهج الذي يولده في النفس، ويقلص امداء الايحاءات التي يبعثها ويحلق بها في أجواء الخيال، هذا الزاد الضروري للشعر ضرورة الخبز للبشر، كما ذهبوا إلى أن الغموض هو وليد العصر، فهذا العصر المركب المعقد المتجزئ الذي ينعكس في الذات بكل مواصفاته الغريبة لايمكن التعبير عنه إلا بلغة غريبة مثله، وبرموز مبهمة على القارئ أن يتخلى عن كسله ويشحذ ذهنه كي يتوصل إلى فهمها والارتفاع إلى مستواها الشعري.

بمعنى آخر، أن الشعر الحديث يحتاج إلى قارئ حديث، أو متذوق حديث في وسعه أن يرقى بإحساساته إلى تلك الذروة التي يحلق فيها هذا الشعر ليكون بإمكانه أن يستوعبه ويحياه وأن هذا الشعر، دون هذا الغموض، يكون تقليدياً يفقد الحداثة، التي هي بعض ثوريته، إن لم نقل كلها.

وقد قرأت مؤخراً رأياً في موضوع غموض الشعر يقول إن الأصوات كثيراً ماترتفع متهمة الشاعر الحديث بالغموض وخاصة إذا كان هذا الشاعر يدين بالواقعية ويتعامل مع القصيدة الحديثة، ويعتقد أن للفن وظيفة اجتماعية.

ولعمري أن مثل هذه الأصوات لم ترتفع عندنا أبداً، فالشاعر الواقعي الذي يرى أن للفن وظيفة اجتماعية لايمكن أن يلجأ إلى الغموض، لأن الغموض، في المفهوم المحدد للواقعية ووظيفة الفن الاجتماعية، يصبح عقبة تحول دون التوصيل بين الشاعر وجمهوره، وعندما يفقد الشعر قدرته على التوصيل يفقد واقعيته ووظيفته الاجتماعية على السواء.

صحيح كما يقول الكاتب: «إن عالم الشعر هو الأخصب، وهو الأكثر قدرة وفعالية على اكتناز واحتواء العالم في داخله ومن ثم إعادة تجسيده، بصورة رؤى تحمل للإنسان القدرة على تفسير العالم جمالياً، والقدرة على النهوض والصمود» ولكن هذا العالم الشعري الخصب يغدو مجدباً، في القصيدة التقليدية أو الحديثة، وخاصة الحديثة، إذا هو لجأ عامداً إلى الغموض، وإلى الإبهام الذي هو غموض مستغلق، لأنه في هذه الحال لن يكون قادراً على تجسيد العالم في رؤى، وعلى تفسيره جمالياً أو فنياً ، يكف عن أن يكون عامل تحريض على النهوض والصمود، لأن شرط التحريض هو الفهم، ومن لايفهم شيئاً لايستطيع أن يتأثر به، أو أن ينهض أو يصمد على أساسه.

إن السريالية التي كانت نبت حضارة معينة هي في طريقها إلى التأزم، سرعان ماضمرت مع ضمور الاستغلاقات التي لجأت إليها، وهذا الأدب ذو الجناح القاتم الذي أعطته، لم يصمد أمام سطوع الفكر المتاح من الواقع، وقد رأينا أبرز السرياليين من مثل أراغون وغيره، يهجرونها إلى الواقعية، أو يتخلون عن استغلاقاتها بحيث تشف تعبيراتهم عن معانيها دون وضوح مسطح، ودون إبهام مغلق.

ولئن أراد بعضهم عن طريق الغموض، تفسير عالم غامض، فإن صنيعهم لم يزد على أن أبهم الأمور وعماها، وقتل الجمالية التي قالوا إنها هدفهم ذلك أن « الجميل - حسب تعبير بوالو في كتابه «فن الشعر»- هو الحقيقي، الحقيقي ولاشيء آخر»، ومايكون حقيقياً لايكون غامضاً، فالحقيقة مشعة دائماً كالشمس في نيسان.

وحجة اللحاق بالركب الحضاري لاتستقيم مع العودة إلى الأنفاس المحتضرة لعصر البورجوازية، بل في تجاوزها إلى الآفاق التي انفتحت مع عصر الاشتراكية، حيث يمتزج رسم عذابات الإنسان وتمزقاته في العالم الرأسمالي مع تطلعات هذا الإنسان وكفاحه للارتفاع على اليأس، والتمرد على الخضوع، والتماسك أمام الاحباطات والانقسامات، واستشراف المستقبل الذي يشكل كلاً منيراً يحدد مسار الإنسان في مأتاه ومغداه.

وليس المرء بحاجة إلى كبير عناء كي يدرك أن الغموض الشعري ناشئ في الأصل عن غموض الفكرة الشعرية في ذهن الشاعر، واختلاط المفهوم الذي يحمله عن العالم، وتشتت الرؤى الذي يضطره إلى رصف الكلمات ونثر أجزاء الصور، دون قدرة على جمعها وتظهيرها، ودون قدرة على صياغتها شعرياً في منطق متماسك يقدم صورة لما يريد أن يقول، وهذا مايجعل الرداءة الشعرية تطفو على السطح، ويحيل القصيدة الحديثة - في الأغلب- إلى معميات ذوات رموز مكررة إلى درجة الإملال، وألفاظ منحوتة بجهد بالغ التعسف والإخفاق.

فإذا تصورنا بعد ذلك أن هذا الغموض يراد به الحداثة، فالحداثة تكون في فهم العصر والقدرة على التعبير عنه، وقد كان ماكس بول فوشيه مصيباً في قوله إن الحداثة تعني أن يكون الفنان ابن زمانه، يتجاوب باستمرار مع مشكلاته فيعيشها ويرسخ جذوره فيها، بحيث يصبح هو هي، وهي هو، وهذه المعاناة الكاملة هي التي تمكنه من أن ينشئ تاريخه وواقعه تأليفاً فنياً تكون له قيمة الفن في التأثير المطلوب آنياً، والإضافة الباقية مقبلاً.

في ٢١ نيسان ١٩٥٥، كتبت المجلة الأدبية السوفيتية تقول: « من المعروف أن لينين وجه نقداً حاداً إلى رواية فينينشكو « وصايا الآباء» المشبعة افتراء، في رسالته إلى اينيسن أرمند، وقد أشار في هذه الرسالة أيضاً إلى « التقليد الرديء، الرديء جداً، لدوستويفسكي، هو عيب هذه الرواية» ومع هذا فقد قال أكثر من مرة إن دوستويفسكي كاتب عبقري حقاً، تأمل الجوانب المرضية في مجتمعه فقط، ومؤلفاته تنطوي على الكثير من التناقضات والانعطافات، لكنها تتضمن في الوقت نفسه لوحات حية مأخوذة من الواقع».

إن التقليد الرديء في شعرنا الحديث يكاد يكون ظاهرة عامة، وهذا التقليد يصبح رديئاً جداً حين يعمد صاحبه، تغطية لرداءته، إلى الغموض ومهما يكن الواقع تعيساً، والنفس الإنسانية معذبة، فإن الشعر قادر على التعبير عن هذه التعاسة وهذا العذاب إذا هو اعتمد الواقع واستمد منه، ونبذ تلك النزعة المستبدة والقاتلة إلى الرموز المغلقة التي أصبحت «وصفة شائعة» في تركيبة القصيدة الحديثة عند اللاموهوبين.

لقد استدعى الاغتراب في المجتمع الرأسمالي جملة من النشاطات الذهنية التي لم تنطلق من الفهم الصحيح لحقيقة الاغتراب، وعبرت هذه النشاطات عن نفسها في الأدب بتلك الموجات أو الصرعات التي نحاول نحن تقليدها، لكن الاغتراب في المجتمع الرأسمالي، حيث الآفاق مسدودة أمام حل المشاكل القائمة، يصبح مفهوماً كمنحى أدبي متأزم، في الشعر أو في الرواية على السواء أما عندنا فالمشاكل تختلف، وآفاقها تختلف وطبيعة النظرة إليها تختلف أيضاً إن مشكلة الاغتراب تزداد عمقاً وحدة بمقدار ما يزداد العلم والتقنية تطوراً، وبمقدار ما يزداد المجتمع القائم على أساس الملكية الخاصة تعقيداً، فأين نحن من مثل هذا المجتمع التقني، وأين مشاكلنا من مشاكله، حتى تكون أدواتنا في التعبير متساوية مع أدواته التعبيرية، أو حتى يمكن إيجاد المبرر لتقليدها على الأقل؟.

لابد من فهم طبيعة واقعنا وحياتنا أولاً - وتلك بديهية- وحين يفهم الفنان مجتمعه وأرضه وناسه والذين يحيطون به يستطيع أن يعبر عنهم بالأداة التعبيرية التي يتخذها لنفسه غير أن الموهبة، حتى لو توفرت، يبقى اتجاه استخدامها هو الأهم.. وقد طرح يوماً شولوخوف هذا السؤال «كيف أقدر الموهبة؟» وأجاب على سؤاله بما يلي: « إذا أخذنا بعين الاعتبار القدرة على الكتابة وحدها، لكان لدينا من الكتاب ستة ملايين لا ستة آلاف.. طبيعي أن الشرارة الإلهية لازمة، غير أن الأهم من ذلك اتجاه الموهبة، نحو ماذا هي موجهة، ومن الذي تخدم ؟ إنه لمهم أن تكون هذه الموهبة في خدمة الشعب».

ولو سلمنا مع الذين يفيضون في الحديث عن توافق غموض الشعر مع غموض الحضارة فعن أي حضارة يريد هؤلاء أن يعبروا؟ ومن يخدمون بغموضهم هذا إذا كان الشعب لايفهمه؟ ثم كيف تكون الثورة بالشعر إذا لم يفهم الشعر نفسه حقيقة الثورة ودوره المساعف لا الحاسم فيها؟ يقال في أيامنا هذه أن الثورة الثقافية يجب أن تسبق الثورة الاجتماعية، وهذا عكس للأمور، فدون ثورة اجتماعية - ووطنية تحررية أيضاً في مثل ظروفنا- ليس في الوسع القيام بثورة ثقافية، ذلك أن ملكية وسائل هذه الثورة هي في يد المجتمع الذي مازلنا غير قادرين على السيطرة عليه، وغير قادرين على استخدام وسائله لصالح ثورتنا الفكرية.

وعلى هذا يكون دور الثقافة الإسهام في تنمية الفكر الثوري، وفي مساعدته على أن يمتلك نظرية ثورية دونها ليس ثمة ثورة على الإطلاق.. وكي يقوم الأدب - والشعر خاصة- بمثل هذا الدور في التوعية والتحريض، لابد أن يكون مفهوماً من الذين يتوجه إليهم في الأصل ومن هذا المنطلق فإن الخلاص في الشعر لايتم إلا إذا كان الشعر أداة خلاص، وإلا إذا كان- حسب تعبير بول ايلوار - قادراً على منح الرؤية للناس.

لقد قال نيرودا: « أنا شاعر لأنني استوحي الوطن والشعب... لأنني أعبر عن الحقيقة الوطنية والمطامح الشعبية وجميع مايعتمل في هذه المطامح وغيرها من نضال وإخفاق، ومن أمل ويأس وثورة» وكان الذين يتوجه إليهم نيرودا يفهمونه ويحبونه كما نفهمه نحن ونحبه، ولم يكن شعره يتسم بالغموض أو يغص بالرموز المغلقة وإلا لما كان شاعر شعبه، ولما أقبل عليه شعبه بالذات وأحبه.

ذلك أن الغاية من الشعر في كل الظروف هي توصيل مايقوله الشاعر إلى الناس، فماذا يقول الشاعر وكيف يقول؟.

كتب ناظم حكمت من سجنه في بروصه، عام ١٩٤٥، إلى صديقه كمال طاهر يقول: « فيما يخص كل عمل فني، وسواء تعلق الأمر بالأدب أو فن العمارة أو الموسيقا، فإن السؤال الذي أطرحه على نفسي في آخر المطاف هو: « ماذا يقول هذا العمل؟ وكيف يعبر؟» وهذان السؤالان لاينفصلان عندي « ماذا يقول هذا العمل؟» أن هذا السؤال هو العنصر الحاسم، والعنصر الحاسم الآخر هو كيف يقوله؟ وأنا أقدر قيمة العمل حسب الجواب على هذا السؤال.. ولاشك أنه من الطبيعي والضروري طرح هذا السؤال الآخر : أين؟ في أي عصر؟ وعندما أطرح على نفسي هذا السؤال بالنسبة إلى شعرائنا الشباب فإن الجواب الذي يقدمه معظمهم في كثير من قصائدهم ليس مرضياً في رأيي.. إنهم ، في الفترة الأخيرة خاصة، يتعلقون فقط بالشكل.. صحيح أن مايقولونه ليس سيئاً، أي أنهم يقولونه بمرح ورفيف وذكاء وبشكل مرض ممتع أما بالنسبة للسؤال الأساسي : «ماذا يقول العمل؟» فلا جواب. إنهم يصرحون : « نريد أن نكتب عن الذات .. عن السكر والموت» أو يقولون « ماذا تريدون ؟ لن نكون أبداً تكراراً لغيرنا»، وهذا من هذا النوع ، وعندما نأخذ بالاعتبار مستواهم الاجتماعي يمكن فهم الأسباب التي تقودهم إلى مثل هذه الضحالة.. غير أن تفسير الشيء هل يكفي لتبريره ؟.. أنا أعرف تماماً أن الأشياء التي تستحق أن تقال ينبغي ألا تكون بالضرورة أشياء خارقة عظيمة، ولكن قصيدة ما- والقصيدة بنية واحدة- تعبر عن مثل هذه الفكرة: « انتهى أمري» أو « لقد ضعت» بشكل سطحي وإن كان لبقاً لاتقول في رأيي أشياء تستحق أن تقال».

يضيف ناظم حكمت في الرسالة نفسها: « قرأت مؤخراً مقالاً لاستاذ فرنسي يهاجم ايليا اهرنبورغ.. يبدو أن اهرنبورغ، في معرض مديحه للشعراء الجدد الذين تغنوا بالنضال من أجل استقلال فرنسا الوطني، قد قال أن هتفة من هتفاتهم تساوي قصيدة بكاملها من قصائد»مالارميه» وعلى هذا فإنه اعتبر الشعر أداة من أدوات الدعاية، لذلك فإن الاستاذ الفرنسي غضب غضباً شديداً.. لقد فكرت بالأمر، وإنه لشيء غريب أن شعراء من مثل بودلير ومالارميه أو فيرلين، عندما يقولون لنا إن الموت أجمل من الحياة أو يستسلمون للاقدار، أو يتحدثون عن الحنين إلى الماضي، أو الشوق إلى حبيبتهم الخائنة، وعندما يجترون أمثال هذه الأشياء بلباقة، فإن ذلك كله لايشكل دعاية، أما إذا أكد شاعر عكس هذه الأشياء وبموهبة مماثلة لموهبتهم، فإنه ليس سوى داعية!!».

هل أقول إن الأمر عندنا يجري تقريباً على هذه الصورة؟ كل من يكتب شعراً غامضاً مستغلقاً عصياً على الفهم لايقول شيئاً أو يجتر أشياء قديمة، فإنه شاعر حديث، وكل من لايلجأ إلى هذا الغموض وهذه التعميات وهذا الترميز المبهم المعاد، فإنه شاعر تقليدي، حتى ولو كان يملك موهبة مماثلة لموهبتهم ذاتها.

إن المسألة قد قتلت بحثاً وحواراً، وليس المهم أن نقول الشعر بل المهم: كيف نقوله؟ وعم يعبر؟ وهل يصل إلى الناس أم يكتب للخاصة أو لخاصة الخاصة كما هي الحال؟ وتلك هي المسألة كلها.

الملحق الثقافي - العدد «١٣» تاريخ ١٩٧٦/٦/٣

« ما الشعر...»؟

ليندا إبراهيم

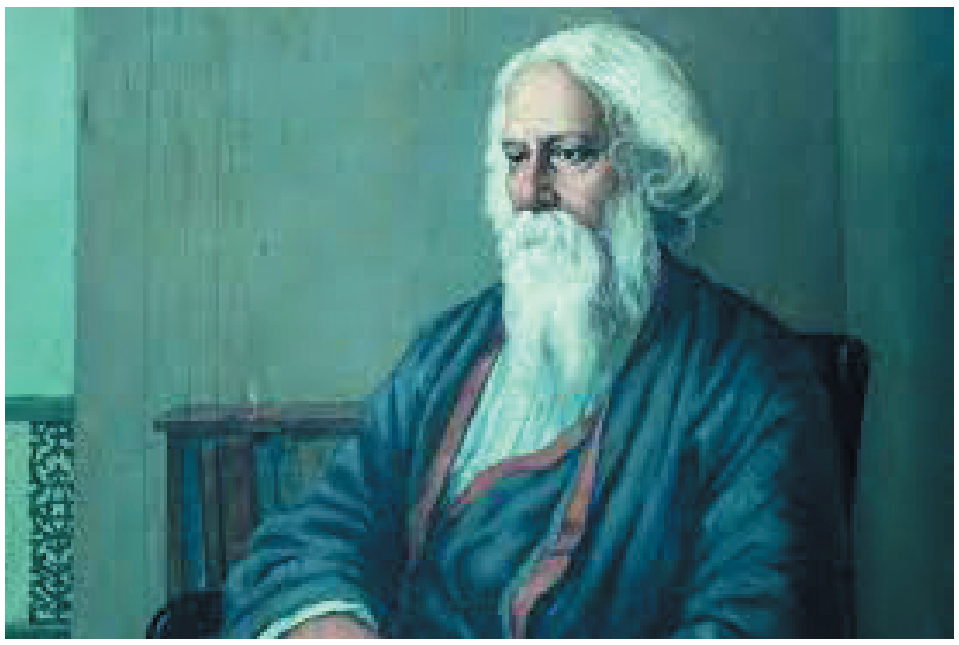

ربما جاز لي أن أكثف المطلب الأساس الذي ينبغي أن تتطلبه نظرية الأدب من الكتابة، أو من الكُتّاب بوجه عام، في أن من واجبهم جميعاً أن يبذلوا قصارى جهدهم كي يجعلوا النصوص التي ينتجون قادرة على البلوغ إلى سويداء الفؤاد، إذ أن كل نص لا يتغلغل في روح المتلقي، ليس سوى لغوٍ سوف تلغيه الأيام، إن لم يكن قد اغتال نفسه بنفسه ساعة ولادته بالضبط..

وبما أن الأدب عامة، والكتابة بالمجمل، والشعر خاصة، نادراً ما يبلغ هذا الشأو المأمول، أي هو نادراً ما يتدفق في الأوردة حتى يصل مركز النفس فيفعل سحره...

وبما أن الشعر، غالباً، تعبير عن الوجدان الإنساني، فإنه سيظل مفعماً بكل إيحاءات الوجود مادام الوجود مستمراً، و إذا كنا نطالب الشاعر أو الكاتب بأن يمنحنا التفاؤل، فإننا مطالبون بفهم مجاهل الشعر و الأدب المغلقة، ومحاولة الدخول إلى سحر فاكهتهم الجذابة، ومنه قول «عمار بلحسن» الدارس السيسيولوجي والأديب :»الشعر فاكهة الكلام» . والشاعر الحق من يغوص في سراديب الذات ليولد لنا عناقيد أرجوانية من اللذة ونحن نقرأ نصوصه وأسفاره، لنكتشف إلى أي مدى كان «شيلي» محقاً في دفاعه عن الشعر حين قال :»بأن الشعراء هم مشرعو العالم غير المعترف بهم»...

إن الشعر يولد من التفاصيل الصغيرة، ومنه «فإن الأثر الأدبي يمتلك العناصر والمقومات التي تجعل منه نصاً قابلاً للخلود، ولعل أهم هذه المكونات قدرته على فرض نفسه بنفسه للاكتشاف بأنه يغدو أمام كاتبه أو قارئه سؤالاً ..» على حد تعبير رولان بارت، وهكذا يصبح النص مالكاً لخفايا يجهد القارئ نفسه في فهمها ومحاولة قراءتها تبعاً لثقافته وأدواته التي يواجه بها النص، وبتعدد القراءات فإن النص يخترق كل الحدود ويثبت قدرته على البقاء لا محالة. « إن الأثر الأدبي لا يخلد لكونه فرض معنى وحيداً على أناس مختلفين، وإنما لكونه يوحي بمعانٍ مختلفة لإنسان وحيد» كما يقول بارت، وعليه فقراءتنا للنص من جوانب مختلفة تمنحه طاقة للاستمرار.. والنص المختلف هو ذلك الذي يؤسس لدلالات إشكالية تنفتح على إمكانات مطلقة من التأويل والتفسير، فتحفز الذهن القرائي وتستثيره ليداخل النص ويتحاور معه..

إنه الشعر الذي يستطيع أن يقدم نفسه بكل هذا البهاء والرونق، مهما قيل أو سيقال عنه بأنه فقد شيئاً من مكانته بين أجناس الأدب أو الفنون الأخرى وسط هذا الركام، فستظل الكلمة الفصل للشاعر الذي يشكل المعيار الحاسم في هذه المعادلة الصعبة.

يقول طاغور: «حين أفكر في الغبطة التي تبعثها هذه الكلمات في عِطْفيّ، أدرك قيمة الدور الذي يؤديه الجرس اللفظي والقافية في القصيدة، إن الكلمات تفيء إلى الصمت، ولكن موسيقاها تظل ممتدةً، ويبقى صداها موصولاً بالسمع، وهكذا فإن المطر ما يزال يهمس وأوراق الأغصان ترتعش حباً، حتى الآن في ذاكرتي».

فما هو الشعر إن لم يكن ضرباً من الجمال؟ ما هو الشعر إن لم يكن رسماً بالألفاظ التي يتم اختيارها بعناية لتعبر عن سيل من العواطف الإنسانية؟ ما هو الشعر إن لم يكن كما هو اسمه شعوراً إنسانياً صادقاً؟... ما هو الشعر إن لم يكن محاولة لفهم العالم بوسائل بشرية بالاستعانة باللغة بكامل عناصرها التي تتوفر لذلك الإنسان المحظوظ الذي يمتلك تلك القدرة على حياكة الكلمات لتصنع نسيجاً جميلاً كما الجمال نفسه؟... ما هو الشعر إن لم يكن مصدره ذلك اللغز العذب الذي يسمونه إلهاماً؟ وما أدراك ما الإلهام؟... وما هو الشعر إن لم يكن فناً كسائر الفنون، ولا يكون فناً بغير الجمال الذي يجذب حواس الإنسان إن تبقى لديه شيء منها.

لا يمكن أن يكون الشعر شعراً إذا كان مباشراً ودقيقاً وصريحاً كقطعة مأخوذة من كتاب فيزياء، لا يمكن أن يكون الشعر شعراً إلا إذا رافقه شعور بالاكتشاف، وشعور بالحقيقة، ولا يمكن أن يكون الشعر شعراً إلا إذا كان مدعوماً بوعي بواقع العالم ونظرة معينة للأشياء، أو ربما ما نسميه ثقافة.

زاوية حادة..

الشعر... هوية ثقافية

غسان شمه

من المعلوم لدى الأدباء والكتاب والشعراء أن الشعر، بالنسبة لنا نحن العرب، هو الديوان الذي حمل ثقافتنا التاريخية وفكرنا وموروثنا الذي ظل موضع تقدير في كل العصور.. وفي الذاكرة التاريخية نعلم أن القبائل العربية كانت تحتفل عندما تكتشف من بين أبنائها شاعراً جديداً يقول متمكناً من هذا الفن الجميل.

والشعر أداة تواصل فرضت نفسها قديماً بما تحمل من ثقافة أو معرفة أو حكمة أرادها الشاعر أن تطير وتذيع بين الناس. وبهذا المعنى كنا أمام موروث غني بالنسبة لنا نحن العرب من حيث غنى دواوين الشعراء بقصائد وصلت إلى الذرى الفنية مع المعلقات العشر، في تقدير نقاد تلك العصور، ولا يعني ذلك أنه لم تشهد التالية نوابغ شعرية قدمت ما قد يكون أرفع مكانة على مستوى اللغة والفكر والتجديد في المعاني والصور، واجتراح آفاق جديدة في عالم الشعر الذي تربت ذائقة أجيال متتالية على ما أبدعه في عوالم الخيال والصور المجنحة.

وإذا كانت اليونسكو، التي اختارت يوم الحادي والعشرين من آذار يوماً عالمياً للشعر، قد قدمت لذلك بالقول «كما أثبت الشعر الذي يعد حجر الأساس في الحفاظ على الهوية والتقاليد الثقافية الشفهية، على مر العصور، قدرته الفائقة على التواصل الأكثر عمقاً للثقافات المتنوعة» .. فإننا نعلم أن الشعر العربي قد كون عبر مراحله المختلفة هوية ثقافية ذات مدلولات عامة وخاصة، وأنه شكل على الدوام حالة من التواصل والتفاعل الخلاق مع الثقافات الأخرى، حيث شهدت العصور الحديثة انفتاحاً متصاعداً للذائقة الشعرية العربية من خلال احتكاكها مع الآخر الشعري، ونهلت تجارب متنوعة سرعان ما طورها الشعراء العرب على مستوى اللغة والرؤية والصورة الجديدة في علاقات مبتكرة بين الألفاظ التي باتت تأخذ منحى مختلفاً في دلالة شعرية جديدة ومتجددة.

نحن العرب يشكل الشعر بالنسبة لنا هوية وذاكرة وذائقة، فسرعان ما نذهب إليه في كثير من المواقف والاستشهادات في حياتنا.

في يومه العالمي

الشعر ضوء الوجدان وهمزة الوصل بين الواقع والخيال

فاتن دعبول

حال الشعر وما آل إليه اليوم، هو السؤال الذي توجهنا به إلى عدد من الشعراء، لتقديم رؤيتهم، كل من منظاره الخاص، وهل حقا مازال الشعر ديوان اللغة وحصنها المنيع؟

توفيق أحمد: البحث عن الإبداع الحقيقي

وفي اعتقاد الشاعر توفيق أحمد أن حال الشعر اليوم هو من حال صنوف الأدب الأخرى، ما يجري على هذا الجنس الأدبي، يجري على الرواية والقصة والدراسات والنقد وغيرها، الموضوع ليس محلياً بقدر ما هو واسع وربما عالمي، ولكن هناك أيضاً ولو كانوا قلة، من يتمسكون بالشعر وبكتابة الشعر، وبالهدف النبيل للشعر، بالتضحية من أجل القصيدة، إذ لا يهمهم أي بيئة سلبية وتحت أي عنوان لأنهم ينزفون من أرواحهم ما يمكن أن يؤدونه كخدمة لرسالة الشعر والمجتمع، وهم مؤمنون بصيانة هذا الفن أو الجنس الإبداعي إلى مالا نهاية.

الأحوال تتغير، وهذه هي الحياة، وكثيراً ما تغيرت النظرة تجاه الشعر، في كثير من مراحل الحياة، ولكن تعود الأمور وتستقر وتأخذ منحى جديداً، وعلينا نحن الذين نحترم الأدب وإمكانيات المبدعين جميعاً وتضحياتهم أن نقف معهم في مشوارهم وتعبهم والمضي باتجاه هدف أنقى وأجمل.

الإبداع اللافت جداً هو ليس كثيراً في كل صنوف المعرفة، ولكن هذا الأمر لا ينسحب على هذه الفترة فقط، هو ينسحب على كل الأزمنة والعصور، لا يوجد إبداع جماعي، الإبداع مشروع فردي ومواهب فردية، قد تساعد المؤسسات الخاصة والعامة مسيرة الإبداع من هنا وهناك، ولكن المبدع يخترق كل الظروف وكل المراحل ويضيء شمساً منيرة في ظلامات الحياة.

ويقول: يجب أن نستمع إلى كثير من الأشعار التي قد لا تطربنا، ولكن من الأهمية أن نستمع للجميع ونعطي الفرص الواسعة للجميع، من أجل البحث عن الذين يقدمون إضافات ملفتة في هذا المجال، فعندما تتوسع الفرصة يمكن أن نلتقط وأن نستكشف إضافات من هذا الشاعر أو ذاك، ومن هذا البلد، أو ذاك، وأملنا أن تبقى هذه المسيرة دائمة رغم ما تعانيه من صعوبات.

قحطان بيرقدار: انعكاس للواقع ومتأثر به

وعن حال الشعر اليوم، يقول الشاعر قحطان بيرقدار أنه مع اتساع رقعة الشعر في زمن» الفيس بوك» ووسائل التواصل الاجتماعي، وانتشار المقاهي والمنتديات الأدبية وما شابه ذلك في السنوات الأخيرة، إضافة إلى أن المنابر الثقافية الرسمية أصبحت متاحة للجميع على اختلاف مستوياتهم بشكل أو بآخر، قد يلحظ المتأمل للوهلة الأولى حالة من الفوضى والعشوائية وحالة من انعدام الضوابط والمعايير على الصعيد الشعري ما بين من يكتبون ومن يتلقون، إلا أن هذه الملاحظة التي قد تتراءى للعيان سريعاً لا تصلح لاعتمادها معياراً في الحكم على حال الشعر اليوم.

فإذا نظرنا من وجهة نظر أخرى، وجدنا أن هناك صعوداً لأسماء شعرية جيدة من جيل الشباب، وأن هذه الأسماء قد بدأت تخط طريقها في درب الشعر على نحو صحيح، كما نجد أن هناك تجارب شعرية قد نضجت الآن، أو هي الآن في طور النضوج، وأن خبرتها في مجال الشعر قد تعمقت وازدادت مع ازدياد منجزاتها الشعرية، إضافة إلى الأسماء الشعرية المشهود لها في الساحة الشعرية السورية، والتي تشكل صمام الأمان للمشهد الشعري السوري.

ويضيف: نلاحظ أيضاً أن هناك تلاقحاً بين الأجيال الشعرية وانفتاحاً لدى كل جيل على الآخر، ودليل ذلك أن المهرجانات والأمسيات الأدبية التي تقام في غير منبر ثقافي تضم في صفوفها أسماء تنتمي إلى أكثر من جيل شعري، وهذا مبشر برأيي.

جمال المصري: ترسيخ للقيم

يبين الشاعر جمال المصري أن الشعر كالضوء، نراه ولا نستطيع الإمساك به، وكلمة شاعر، كلمة جذابة لذلك يحاول الكثيرون أن ينتحلوا هذه التسمية، وهؤلاء لا يقاس عليهم في الواقع الحقيقي ولا في الفضاء الأزرق.

أما الشعر الحقيقي فهو تجاوز مستمر وانتماء وترسيخ للقيم ضمن لغة مزدحمة بالأخيلة والمشاعر والمعاني والمباني التي تمتزج مع بعضها وفق تركيبة شعرية تسعى إلى بناء كائن جمالي محب للبشرية والطبيعة والحياة.

والمشهد الشعري السوري مليء بالشعراء، مع الأخذ بعين الاعتبار، أن الشعراء في كل العصور هم قلة قليلة وأحيانا نادرة.

وإذا كانت المأساوية تحيط بأغلبية ما يكتب من الشعر، فهذه حالة صحية جداً في مثل هذه الظروف الشديدة التعقيد، لأن الألم هو بمثابة جهاز إنذار ينبهنا إلى ضرورة المعالجة من الأمراض التي تحيط بنا.

كما أنه يوجد في المشهد الشعري الآن، الكثير من المخاضات التي تسعى إلى ولادة الطفل الشعري الأجمل.

منير خلف: يعاني أزمة حقيقية

ويرى الشاعر منير خلف أن المحتفى به» الشعر» يعاني أصحابه أو مدعوه معاناة حقيقية محفوفة بالكثير من الغموض المترهل المتعمد من قبل سالكي طريقه حسب ظنهم، كونهم استسهلوا صعود سلمه الطويل، فرأوه قصيراً، وانعكست الصورة بذلك عليهم، ولم يقدروا الإمساك بجوهره الزمردي الحقيقي الذي ينفخ فيه ويجعله كائناً حياً لا يمكن التخلي عنه.

وما يشهده المتابع في أيامنا هذه من خلال ما يتيحه الفضاء الأزرق من مجالات واسعة أمام كل مدع للشعر، أو من يجده مطية لشهرة سريعة.

وسيرى المتابع ما آلت إليه حال الشعر من أزمة حقيقية يحتاج فيه هذا الكائن السحري النبيل إلى وقت لا بأس به، لينفض الغبار عن جماله الذي لم يكشف حقيقته بعد الكثيرون، ولم يسبروا أغواره المكتنفة بجميع حالات الإنسان المعاصر الجوهرية.

فإذا ما جهل الشاعر نفسه، ولم يفقه ما يريد أن يرمي إليه، سنظل نحن القراء في تيه غامض لا نعلم فك شيفرة ما تتصدره أمام ظهرانينا دور النشر التي تتسابق على تلميع ما يرغبون فيه بغية الربح المادي البعيد كل البعد عن جوهر الأدب وسموه الروحي، وفي المقابل لا يمكن نكران وجود شعر حقيقي يسحر الألباب، ويأخذ بها إلى مصاف إنسانية افتقدنا نعيمها ونسينا تسنيمها حالمين بتفاؤل تحمله إلينا قادمات الأيام، وتظل أرواحنا في ظمأ الانتظار إلى ذلك الوعد.

إيمان موصللي: يفتقد النقد البناء

والشعر عند شاعرتنا إيمان موصللي هو همزة الوصل بين الواقع والخيال، وهو صديق ما حوله من طبيعة وتجارب وظروف تدور في فلك ما نحياه من حزن ووجع وفرح وحب وفقد، ولا يستطيع الشاعر أن ينفصل عن واقعه، ولكنه يمتلك القدرة العالية على تناول تفاصيله بطريقته الخاصة والمبتكرة.

وتضيف: الشعر في زمننا اليوم يمر في مرحلة تحوّل وصقل، فالشاعر يجب أن يجمع بين ما تعلمه وامتصه من موروث له أصالته، وبين عصر الحداثة اليوم، بطريقة تجعله لا يتخلى عن الأساس وبنفس الوقت يجاري موجة الحداثة والتجديد في القالب الشعري دون التحليق طويلا خارج السرب.

وللأسف هناك بعض التقصير من المؤسسات الثقافية المعنية بالنشاط الثقافي بشكل عام رعاية جيل الشباب ومواكبة مسيرته وإرشاده إلى المسار الأصح، وهذا لا ينفي جهود بعض المهتمين بالأدب والشعر ودعمهم الدائم للنشاطات والفعاليات.

وأكبر مشكلة تواجه الشعر اليوم هي افتقاد الساحة الثقافية للنقد البناء والمدروس، فالنقد يجب أيضاً أن يجدد منظوره للشعر، وعلى الناقد أن يكون موضوعياً ومثقفاً، بحيث يغني النص الشعري ويثريه، القلة القليلة في واقعنا يجيدون فن النقد بحرفة عالية.

أحلام بناوي: ليس بخير

ومع كثافة ما نراه اليوم من الشعر من غثه وثمينه، تقول الشاعرة أحلام بناوي أنه لا نستطيع أن نقول إن الشعر بخير، كما أننا لا نستطيع القول إن كل ما يطرح للمتلقي هو شعر حقيقي.

كان العرب في الماضي يقولون إن» كل مئة عام يولد شاعر» بالرغم من فصاحة العرب، كبيرهم وصغيرهم، إلا أنهم كانوا يعتبرون الشعر منزلة عليا لا يبلغها أي كان، واليوم نجد كثافة عالية في المادة المطروحة على أنها شعر، إلا أنه في الواقع لا ينطبق لفظ الشعر إلا على قلة قليلة منها، وفي هذه القلة القليلة يتجسد شعر حقيقي يحمل روح الحداثة مع المحافظة على الأصالة والهوية الثقافية العربية رغم الانفتاح والتأثر الجميل بالآخر.

وما يثير الانتباه في الشعر اليوم هو عودة اهتمام العنصر الشاب بأهمية الأدب وضرورة عودتهم إلى الأصالة ليبلغوا الحداثة على أسس متينة قوية، وإن صدق الشاعر كعب بن زهير» ما أرانا نقول إلا رجيعاً ومعاداً من قولنا مكروراً» فإن بعض التجارب الشعرية اليوم استطاعت أن تأت بهذا الرجيع من القول بصيغة لافتة وحداثوية تستحق أن تسمى شعراً.

خلود قدورة: الاستسهال يقتل الشعر

تقول الشاعرة خلود قدورة إن الشعر كان منذ بداياته كغيره من الفنون الأدبية، يشكل انعكاساً للواقع بصيغ جمالية وفنية، وعلى هذا فإنه اليوم لن يكون بأحسن حالاته، لطالما تعيش المجتمعات العربية أزمات وتحديات على جميع الأصعدة، وقد انعكس هذا على الشعر بشكل جلي، ومن أكثر ما يسوء الشعر في هذه الأيام هو الاستسهال الذي ينال من جودة الشعر وسهولة انتشار الرديء منه بسبب الانفتاح التكنولوجي الواسع، بالإضافة لأزمة النقد المتأثر بالمدارس الغربية بشكل كبير، والذي جعل بعض الشعراء يتجهون لكتابة ما يرضي جمهور النقاد، فتبدو القصيدة حجراً مزخرفاً وبأبهى حالاته لن يستطيع النطق.

فالفهم الخاطىء للحداثة ــ المطلوبة حتماً ــ جعلها تحوّر بالشكل دون المضمون ما جعل الكثير من النصوص هزيلة هشة.

كل هذه المعطيات شكلت شرخاً واسعاً بين الشعر والقارىء العربي الذي لم يعد يجد في الشعر ما يحاكي واقعه أو يرضي تخيلاته، بل في أكثر الأحوال يجد طلاسم عصية على الفهم والإحساس، فلا يجوز التعاطي مع الشعر على أنه حكر على الأدباء والنقاد، فتقديمه بطريقة جمالية سلسة بعيدة عن التعقيد يجعله أقرب للقارىء، ويعيد له مجده ويغير الصورة الذهنية المنتشرة التي تشكل رفضاً مسبقاً من الناس الذين غالباً ما يشعرون بأن هذا المنتج الأدبي بعيد كل البعد عنهم، فيميلون لغيره كالرواية مثلاً التي تلقى رواجاً كبيراً بين الناس، وهذا ما يجعلنا نفكر ملياً قبل إلقاء المسؤولية على عاتق الجمهور واتهامه بأنه لا يقرأ.

لكن لنكون منصفين فإن هناك على الضفة الأخرى ما يبشر بالشعر، فرغم كل التحديات التي تواجهها القصيدة الأصيلة اليوم، إلا أننا لا نستطيع أن ننكر أن هناك نتاجاً وفيراً من الشعر الجميل الذي استطاع إمساك العصا من المنتصف والموازنة بين الحداثة والأصالة بما يرضي الذائقة، واللافت للنظر أن بعضاً من صانعي هذا الشعر هم من جيل الشباب الذين تمسكوا بجذور الشعر ورفضوا الانسياق وراء عشوائية التجديد، بل أدخلوا على القصيدة صوراً حداثية بديعة، ولم يجدوا في القالب الموزون قيداً.

ومن الأمور الإيجابية أن وسائل التواصل الاجتماعي، جعلت هؤلاء الشعراء يلتفون في الواقع الافتراضي رغم المسافات، ويتبادلون الآراء ويستفيدون من تجارب بعضهم بعضاً، لتكون هذه الإيجابيات الموجودة حالياً بمثابة قوة يتكىء عليها ليظل واقفاً على أمل أن يستعيد كامل قواه وألقه.

قريباً من ضفاف روحه

بديع صقور

فردت يديها كجناحي طير . .

رنت إلى السماء ، وهمست للريح :

تكفي القلب رصاصة . .

رصاصة واحدة . .

يكفيه طعنة . . طعنة واحدة . .

يكفيه أنه مات . .

لم يكن بحاجة لساطور يشوّه وجهه وعنقه

ورأسه وذراعيه وقدميه ، وقلبه . . يكفيه أنهم قتلوه .

×××

في خلايا جسده خطوا شروخاً عميقة بأعصاب باردة . .

بأعصاب باردة ابتسموا ، بينما كان قلبه يتوقف عن النبض والارتعاش .

×××

قريباً من قبره . . قريباً من ضفاف روحه . .

قريباً من غفوة الأبد . . يخبو صوت بكائها تارة

وتارة يعلو نشيج الفراق والدموع .

لم تصدق بأن الممدّد على نقالة الموت . .

هو بعينه ابنها الوحيد .

×××

كان على موعدٍ من حياة ففاجأه الرصاص . .

لم يكن يفكر بموته على هذه العجالة . .

كان يحلم بالرجوع إلى ظلِّ سنديانة . .

إلى نبع ضيعتهم أسفل الوادي العميق .

×××

تروح جهة الجبال . .

تحطُّ قنديلاً على صخرة شاهقة . .

وتنتظر عودة الطيور .

×××

عنوة خطفوه إلى الموت . .

لم يعد من سبيل لأن تسند رأسها

على تخوم صدره المبلل بالنجيع .

×××

بعد الآن لن تراه نائماً بوداعة تحت عرائش النجوم

بعد الآن لن تبحث له عن في آخر يُظله من لظى الأيام .

×××

تغمض عينيها وترسم وجوههم . . وجهاً . . وجهاً . .

يغمضون عينيه بالرصاص

لم يعد من فرصة لأن يرسم مستقبلاً جميلاً

كان يحلم أن يعيش فيه أطفاله بنعيم .

×××

كيف نحلم بالطمأنينة في غابة من رصاص ؟ !

معك رصاصة

معي زهرة

إذاً كيف سنلتقي ؟ !

× ××

ينهمر المطر . .

يركضون تحت خيوطه . .

تتبلل أجسادهم برشقات متواصلة . .

ينفر الدم من أوردتهم، ويسقطون مضرجين بالموت . .

واحداً . . واحداً . .

هكذا يوقفون جري الغزلان عن الصعود إلى قمم الجبال . .

هكذا ينهمر الموت على المدن

والسّهول والتلال .

×××

وجع يقصم ظهر الجبل . .

وجع يبدد حلم أطفالنا . .

وجع على مداخل الروح . .

كثيرون شتتهم الوجع . .

كثيرون مضوا . .

على وقع خطاهم فتحت نوافذ القلب

وأطلقت صرخةً مكلومة في وجه الظلام .

×××

اقتربْ من أرواحهم، وشدّهم إلى ساحة الضوء

فلربّما يشاهدون تجاعيد حقدهم في مرآة السماء

اقتربْ . . لعلهم يتوقفون عن سفك الدماء . .

اقتربْ . . كي يتعرفوا على حقيقة القتل

الذي يقتنص أرواح الجميع .

شجرة عيد الميلاد والعرس

ترجمة: د. ثائر زين الدين- د. فريد حاتم الشقف

(من مذكرات مجهول) تأليف: فيودور دوستويفسكي

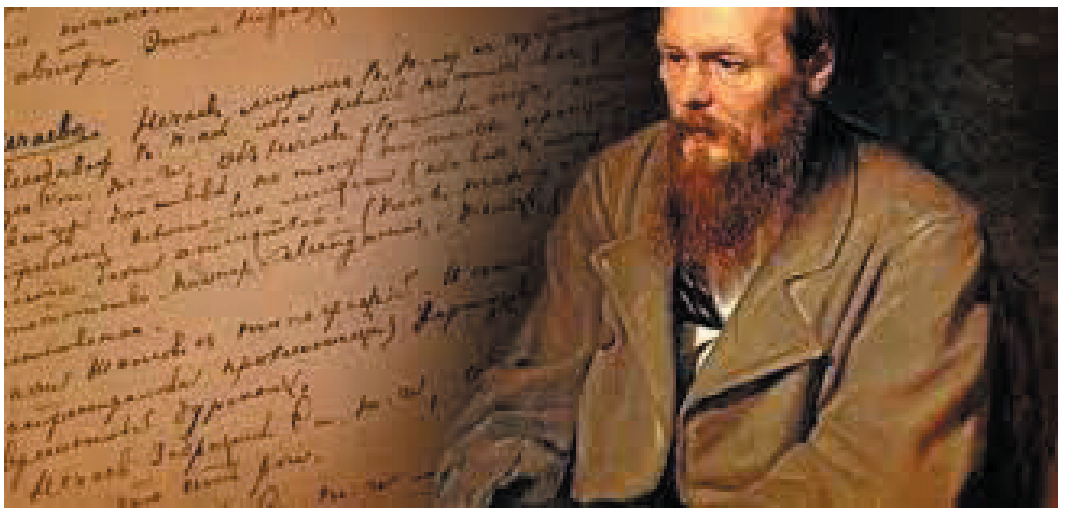

شاهدتُ منذ أيام عُرساً... لكن لا! الأفضل أن أحدثكم عن شجرة عيد الميلاد. كان عرساً جيّداً؛ وقد أعجبني كثيراً، لكن الحادث الآخر أفضل. لا أعرف كيفُ خطرت ببالي تلك الشجرة وأنا أنظر إلى هذا العرس.

حصل الأمر على النحو الآتي. دعيتُ منذ خمس سنوات تماماً، قُبيل رأس السنة إلى حفلِ رقص للأطفال. الشخصُ الذي دعاني، رجلُ أعمال معروف بعلاقاته ومعارفه، وبثروته، لذلك يمكن القول :إنّ حفلَ الأطفال لم تكن سوى مُسوّغٍ للآباء، كي يلتقوا معاً ويتناقشوا في أمور ومصالح أخرى بعفوية، كما لو أنّ الأمر حدثَ مُصادَفةً.

أنا كنت شخصاً دخيلاً على الحفل؛ لا مصالح لديّ مع أحد، ولذلك أمضيت السهرة دون ارتباطات تقيّدني.

وكان ثمّةَ سيّدٌ آخر، وهو على ما أعتقد، لا ناقة له ولا جمل، إنّهُ مثلي، لا قرابة تربطه بالآخرين، شخصٌ وجد نفسه ضمن فرح عائليّ... وهو أوّل من لفت انتباهي. كان رجلاً طويلاً نحيفاً، جدّياً تماماً، يرتدي ثياباً أنيقة. وبدا واضحاً أنّ الفرحة والسعادة العائلية من حوله لم تكن تعنيه؛ وذلكَ عندما ابتعد إلى مكان ما في الزاوية، وتوقف مباشرة عن إظهار ابتسامته، وعبس بحاجبيه الأسودين الكثّين.

لم يكن يعرف ولو شخصاً واحداً في الحفلة كلّها ما عدا المضيف. وكان واضحا أنّه سئم حتى الملل، لكنّه تحمّل بشجاعة، وإلى النهاية دورَ الشخصِ السعيدِ والمُستَمتِع تماماً.

عرفتُ فيما بعد أنّ السيّد كان قد قَدِمَ من القرية لأداءِ عمل مهمّ جداً في العاصمة، وأحضَرَ لمضيفنا رسالةَ توصية، و تولّى مضيفُنا أمرَ حمايته ومساعدته في مهمّته بكلّ حبّ، و دعاه للمشاركةِ في حفلِهِ الذي أقامهُ للأطفال.

لم يلعب الحضور بالورق، ولم يعرض عليه أحدٌ سيجاراً، وما شاركهُ شخصٌ في حديث، لعلّهم عرفوا الطائرَ الغريبَ عن بُعدٍ من ريشه، ولذلك اضطرّ سيّدي أن يشغلَ يديه في أيّ شيء، فأخذ يمسّدُ شاربيه طوال السهرة. شارباه بالفعل كانا جميلان جدا. لكنّه مسّدهما بمثابرة حتى أنّكَ إذا نظرت إليه، اعتَقَدتَ أنّهما إنّما أُنتجا لأوّل مرّة في هذا العالم، وقُدّما إليه كي يمسّدهما.

أعجبني أيضاً من المشاركين في هذا الفرح العائلي للمضيف، ذي الأطفال الخمسة جيّدي التغذية، ماعدا هذه الشخصيّة، سيّدٌ آخر. لكنّه كان من نوع آخرَ مختلفٍ تماماً.

كان شخصيّة مرموقة، اسمه يوليان ماستاكوفيتش. ويمكن أن تتبيّن من النظرة الأولى، أنّه كان ضيفَ شرفٍ، وأنّهُ على علاقةٍ بالمُضيف، تُشبهُ علاقة المُضيف بالسيّد الذي مسّد شواربه.

تحدّثَ الزوجان إليهِ بكل لباقة، واعتنيا به، وقدما له الشراب، واعتزّا به، وأحضرا ضيوفهما إليه للمَشورة، أمّا هو فما قاداه نحو أحدٍ. وقد لاحظتُ أنّ المُضيفَ، ربّ المنزل، لمعت عيناهُ بالدمع فرحاً، عندما عبّريوليان ماستاكوفيتش عن ارتياحه للسهرة، وأنّه نادراً ما يمضي وقتاً ممتعاً كما في هذا الحفل.

انتابني بصورةٍ ما الخوفُ بوجود شخص كهذا، ولذلك مُهتَمّاً ومُعجباً بالأطفال، انسحبتُ إلى الصالون الصغير، الذي كانَ خالياً تماماً، وجلستُ خلفَ جناحِ أزهارِ ربّةِ المنزلِ الذي شغلَ نصفَ الغرفةِ تقريباً.

كان الأطفالُ لطفاءَ كثيراً ولم يرغبوا بأن يُشبهوا الكبار، بغضّ النظر عن نصائح المُربّيات والأمهات. ولقد جرّدوا شجرة عيد الميلاد بلحظة، حتى آخر قطعة حلوى، وتمكنوا من تكسير نصفِ الألعاب، قبل أن يعرفوا من تَخصُ كُلُ واحدةٍ منها.

كان أحدُ الصبيان جميلاً بشكلٍ استثنائي، عيناه سوداوان، وشعرُه أجعد، وقد استمرّ في إطلاق الرصاص عليّ من بندقيته الخشبية. لكنّ أختَه كانت أكثر من لفتَ انتباه الجميع، هي في الحادية عشرة من عمرها، فاتنة كآمور[١- صغير، هادئة، عميقة التفكير، شاحبة، ذات عينينِ كبيرتين متأمّلتين. لقد أزعجها الأطفالُ بطريقة ما، فمضتْ إلى ذلك الصالون، حيث أجلس أنا، وانشغلت في الزاوية بلعبتها. أشارَ الضيوفُ باحترام إلى أحد التجارِ الكبار، والدِ الفتاة، وهمس أحدهم قائلاً: إنّ والدها خصّصَ مبلغَ ثلاثمئة ألف روبل مهراً لها. وبينما كنت أنظر إلى أولئك الذين اهتمّوا بهذا النبأ، وقع نظري على يوليان ماستاكوفيتش، الذي وضع يديه خلف ظهره وأمال رأسه جانبا، واستمع بانتباهٍ إلى ثرثرة هؤلاء السادة. لم أستطعْ فيما بعد إلاّ أن أدهشَ من حكمة المضيفين في توزيع هدايا الأطفال. حيث حصلتِ الفتاةُ، التي تملكُ ثلاثمئة ألف روبل مهراً، على أغلى هديّة. ثم توالتِ الهدايا انخفاضاً؛ حسب مستوى أهل هؤلاء الأطفال السعداء. وأخيراً، حصلَ آخرُ طفلٍ، في نحو العاشرة من عمره، ضعيف، صغير، أحمر ومُبقّع الوجه، على كتابِ قصصٍ فحسب، يتحدّث عن عظمة الطبيعة، وعن الدموعِ والعواطف وأمور أخرى، من دون صور وحتى بلا قيمة تُذكر.

كان ابن معلمةِ أطفالٍ صاحبِ البيت، وهي امرأة أرملة فقيرة ووحيدة، والطفلَ كان منسياً تماماً وخائفاً. كان يرتدي سترة من قماش قطنيّ أصفرِ اللون. وعندما استلمَ كتابَهُ، طافَ وقتاً طويلاً حول الألعاب الأخرى؛ توّاقاً للعب مع الأطفال الآخرين، لكنّه لم يتجرّأ؛ فقد شعرَ بموضعِه على ما يبدو وأدركه.

أنا أحبُ كثيراً مراقبةَ الأطفال. وأكثر ما يثير فضولي هو ظهورهم المستقل الأوّل في الحياة. لاحظتُ أنّ الصبيّ الأحمر أغرته ألعابُ الأطفال الآخرين الثمينة، وبخاصّة المسرح، الذي رغبَ كثيراً أن يؤديَ دوراً ما فيه، لدرجة أنّه قرّر المشاركة. ابتسمَ ومازحَ الأطفالَ الآخرين، وأعطى تفاحتَه لصبيّ سمين، يحمل منديلاً مليئاً بالحلوى، وحتى أنّهُ قرّر أن يحملَ أحدهم على ظهره، فقط من أجل ألّا يبعدوه عن المسرح. لكنّ ما هي إلا دقيقة واحدة حتى تلقى ضربةً مؤلمةً من صبيّ مؤذ. لم يجرؤ الطفلُ على البكاء. وهنا حضرت أمّه المعلّمة، وأمرته ألّا يزعج لعب الأطفال الآخرين. دخل الطفل إلى الصالون الصغير نفسه، حيث كانت الفتاة. فسمحت له باللعب معها، وأخذا يعملان معاً بجديّة لإلباس الدمية العروس الثمينة.

كنتُ قد جلستُ نصف ساعة خلف النباتات وغفوت تقريباً، وأنا أستمعُ لحديث الصبيّ الأحمر والفتاة الجميلة التي مهرها ثلاثمئة ألف روبل والمشغولة بالدمية، حتى دخل فجأة إلى الصالون الصغير يوليان ماستاكوفيتش، الذي استغلّ شجار الأطفال وخرج

بهدوء من القاعة. ولاحظت، بأنّه تحدّث منذ دقيقة بحماس إلى والد العروس الغنيّ، وقد تعرّف إليه لتوّه، حول أفضلية وظيفة ما على أخرى. وها هو يقفُ الآن يفكّر، وكأنّه يعدّ شيئا ما على أصابعه.

– ثلاثمئة... ثلاثمئة،– همس – أحد عشر... إثنا عشر... ثلاثة عشر وهلمج. ستة عشر– خمس سنوات! لنفترض أربعة في المئة مضروبة ب ١٢، خمس مرّات= ستين، وبهذه الستين لنفترض ستكون بعد خمس سنوات– أربعمئة. نعمْ! إذاً... ليس أربعة في المئة يطلب هذا المحتال! يمكن أن يطلب ثمانية أو عشرة في المئة. حسناً، خمسمئة لنفترض، خمسمئة ألف في الحد الأقصى على ما أعتقد؛ عدا عن الكسور...

عندما أنهى تأمّله وحساباته، تَمخّط وأراد أن يغادر الغرفة، لولا أنّه نظر فجأة إلى الفتاة وتوقّف. لم يرني وأنا أقبعُ خلف أحواض النباتات. بدا لي أنّه كان متوتّراً جداً. إمّا أنّ الحسابات قد أثّرت فيه، أو أنّ شيئاً ما آخر، لكنّه مسح يديه ولم يستطع التوقف في مكانه. ثمّ ازداد هذا التوتر كثيراً، عندما توقف ورمى نظرةً أخرى مركّزة على عروس المستقبل.

تحرّك إلى الأمام، لكنّه نظر فيما حوله بداية. ثم مشى على رؤوس أصابع رجليه، وكأنّه يشعر نفسه مذنباً، وأخذ يقترب من الفتاة. وصلَ إليها مبتسماً، انحنى وقبّلها على رأسها، فصرخت فزعاً تلك الصغيرةُ التي لم تتوقع الهجوم.

تَلفّتَ حوله وسألَ الفتاة هامساً وهو يطبطبُ على عنقها:

– وماذا تفعلين هنا أيّتها الطفلة اللطيفة؟

– نلعب...

نظر يوليان ماستاكوفيتش إلى الفتى قائلاً:

– آآآ؟ معه؟

ثمّ قال له:

– لو تذهب عزيزي أنت إلى القاعة.

صمتَ الصبيُ ونظر إليه مستهجنا. تلفّتَ يوليان ماستاكوفيتش حوله مرّة أخرى وانحنى من جديد نحو الفتاة.

سألها:

– ماذا لديكِ، دمية ابنتي العزيزة؟

أجابته الفتاة، خجولة ومقطبةً حاجبيها:

– دمية.

– دمية... أتعلمين يا ابنتي العزيزة من أي مادةٍ صُنعتْ دميتك؟

أجابته الفتاةُ همساً، وخفضت رأسها تماما:

– لا أعرف...

– مصنوعة يا ابنتي من القماش. وأنت أيّها الصبيّ اذهب إلى من هم في سنّك في القاعة.

قال يوليان ماستاكوفيتش ذلك، ونظر بقسوة إلى الطفل. قطّب الطفل والفتاة حواجبهم وتمسّكا أحدُهما بالآخر، غير راغبين في الافتراق.

سألها يوليان ماستاكوفيتش، خافضاً صوته أكثر فأكثر:

– وهل تعرفين لماذا أهدوك هذه الدمية؟

– لا أعرف.

– لأنّك كنت لطيفة وحسنة التصرّف طيلة الأسبوع.

هنا تَلفّتَ يوليان مستاكوفيتش حوله وقد بلغَ التوتر منه مبلغاً كبيراً، وسألَ خافضاً صوته أكثر فأكثر، حتى يكاد لا لا يُسمَع بسبب التوتّر وفقدان الصبر:

– هل ستحبينني أيتها الطفلةُ العزيزةُ، عندما سآتي ضيفاً على والديك؟

قال ذلك يوليان ماستاكوفيتش وأراد أن يقبّل مرّة أخرى الفتاة اللطيفة، لكنّ الصبيّ الأحمر، وعندما رأى أنّها تريد البكاء، أمسكها بسرعةٍ من يدها ونشجَ باكياً مواساة لها. غضب يوليان ماستاكوفيتش غضباً شديداً،:

– اذهب، هيّا اذهب من هنا! اذهب إلى القاعة! – قال للفتى– اذهب إلى هناك إلى أصدقائك!

قالت الفتاة:

– لا، لا داعي لأن يذهب، لا داعي! اذهب أنتَ من هنا– وتابعت باكيةً – اتركه وشأنه، اتركه وشأنَه.

أثار أحدهم ضجّةً عند الباب، رفع يوليان ماستاكوفيش جسده المبجّل مباشرة شاعراً بالخوف. لكن الصبيّ الأحمر كان أشد فزعاً من يوليان ماستاكوفيتش، فترك الفتاة وخرج من الصالون إلى قاعة الطعام بهدوء متكئاً على الحائط. مضى يوليان ماستاكوفيتش كي لا يثير الشكوك إلى غرفة الطعام أيضاً، كان وجهه أحمر كالسرطان، نظر في المرآة، وقد بعث شكلُهُ الارتباك في نفسه. واضطرب من استعجاله ونفاد صبره. لعل الحساب على الأصابع قد أغراه في البداية، أغراه وألهمه، لدرجة أنّه وبمعزلٍ عن وقاره وأهميّته، قرّر التصرّف كصبيّ والانقضاض مباشرة على موضوعه الخاصّ به، بغض النظر عن أنّ الموضوع لا يمكن أنّ يصبح واقعياً قبل مرور خمس سنوات.

تبعتُ السيّدَ الموقّرَ إلى صالة الطعام وشاهدتُ منظراً غريباً. يوليان ماستاكوفيتش مضرّجٌ بالحمرة من الغضبِ والإحباط، يبعث الخوفَ في نفس الصبيّ الأحمر، الذي يهرب منه مبتعداً ما استطاع، دون أن يدري إلى أين يفر جراء الفزع.

– اخرج، ماذا تفعل هنا، اغرب من هنا أيّها التعيس! تسرق الفاكهة هنا، أليس كذلك؟ تسرق الفاكهة؟ اخرج أيّها التعيس، اخرج أيها المخّاط، اخرج، واذهب إلى رفاقك!

قرّر الصبي المرعوب، اللجوء إلى وسيلة يائسة، فجرّب أن يندسّ تحت الطاولة. حينها أخرجُ الرجلُ المُنفعل كثيراً من جيبه منديل قماش طويلاً، وبدأ يهزّه من تحت الطاولة للصبيّ المستسلم تماماً.

تجدر الملاحظة بأنّ يوليان ماستاكوفيتش كان سميناً بعض الشيء. كان شخصاً حسن الغذاء، موَرّدَ الوجه، ممتلئ الجسم، ذا كرش، ورجلين سمينتين، باختصار، كان قويّاً وكُرويّاً كحبة جوز. تَعَرّقَ، ولهثَ واحمرّ وجهه بشدّة. وأخيراً فقد كان مسعوراً تقريباً، يتملّكه الشعور بالغضب العارم، أو قد يكون ذلك (ومن يدري؟) بسبب الغيرة.

وضحكتُ ضحكةً قويّة. فاستدار يوليان ماستاكوفيتش وتملّكهُ الإحراجُ الشديدُ بغض النظر عن أهميّته. دخل المضيف في هذه الأثناء من الباب المقابل. فخرجَ الطفلُ من تحت الطاولة ونفَضَ ركبتيه ومرفقيه. أسرع يوليان ماستاوفيتش في رفع المنديل الذي كان يمسك به من طرفه، إلى أنفه.

نظر المضيف إلينا نحن الثلاثة مستغرباً بعض الشيء؛ لكنّه كإنسان يعرف الحياة وينظر إليها نظرة جدّية، استغلّ الفرصة التي جمعته بانفراد مع الضيف، وقال له مشيراً إلى الصبيّ الأحمر:

– هذا هو الصبيّ الذي ان كان لي الشرف أن أطلب...

أجاب يوليان ماستاوفيتش، وهو لا يزال مضطرباً بعض الشيء:

– ماذا؟

تابع المضيف بنبرة استجداء:

– ابن مُعلّمة أطفالي، المرأة المسكينة، أرملة، زوجها كان موظّفا شريفا؛ ولذلك... إذا كان من الممكن يوليان ماستاكوفيتش...

صاح يوليان ماستاكوفيتش مُتعجّلاً:

– آه، لا، لا، لا، اعذرني فيليب الكسييفيتش، من غير الممكن. لقد سويتُ الأمر؛ ولا يوجد أماكن شاغرة، وحتى لو كان ثمّةَ شاغر، فإنّ له عشرة مرشّحين، يستحقون أكثر بكثير، منه... آسف جداً، آسف جداً...

– آسف، – كرّر المضيفُ – الصبيُ متواضعٌ وهادئ...

أجاب يوليان ماستاكوفيتش، ولوى فمه بطريقة هيستيريّة:

– إنّه سافل كبير، كما لاحظتُ – وتوجّه إلى الطفل قائلاً: اخرج من هنا، أيّها الصبيّ، لماذا أنت واقف، اذهب إلى رفاقك!

أعتقد أنّه هنا لم يعد باستطاعته التحمّل ونظر إليّ بعين واحدة. وأنا أيضاً لم أعد أستطيع التحمّل وضحكت مباشرة في وجهه. استدار يوليان ماستاكوفيتش مباشرة وسأل المضيف على مسمعي بشكل واضح، من يكون هذا الشابُ الغريب؟ تهامساً وخرجا من الغرفة. ورأيتُ فيما بعد، كيف هزّ يوليان ماستاكوفيتش رأسه غير واثقٍ وهو يستمع إلى المضيف.

عدتُ إلى القاعة، بعد أن ضحكتُ بما فيه الكفاية. وهناك كان الزوجُ العظيمُ، محاطاً بآباء وأمّهات أسرتي المضيف والمضيفة، يتحدّثُ بحماس لإحدى السيّدات، وقد قدّموها له لتوّهم. السيّدةُ كانتْ تُمسكُ بيد الطفلةِ، التي كان ليوليان ماستاكوفيتش معها ذلك المشهد في الصالة الصغيرة، منذ عشر دقائق. وأخذ الآن ينثرُ الثناءات على جمالِ الطفلةِ، وعلى مواهبها، وتربيتها الرائعة. كان يثني أمام الأم بشكل لافت للنظر. و كانت الأمُ تسمَعُه وتكادُ دموعُها تنهمرُ من الدهشة. و كانت شفتا الأب تبتسمان فرحاً. وسَعِدَ المضيفُ بفيض السرور العام. وحتى الضيوف شاركوهم شعورهم، وتوقّفَ الأطفالُ عن اللعب، كي لا يفسدوا الحديث. وامتلأ الهواء كلّه بجوّ الود والاحترام.

ثم سمعت بعدَ ذلك أم الطفلةِ المثيرةِ للاهتمام، والمتأثرة حتّى أعماق قلبها، كيفَ طلبتْ بتعابيرَ منتقاة من يوليان ماستاكوفيتش أن يقدّم لهم شرفاً خاصّاً، ويهدي بيتَهم عربونَ صداقتِه الثمينة؛ وسمعتُ كيف قبل يوليان ماستاكوفيتش الدعوةَ بكلّ رحابة صدر، وكيف تفرّق الضيوف باتجاهات مختلفة، كما تتطلّبُ اللباقة، ونثروا أمام بعضهم البعض الثناءات الرقيقة على المضيف والمضيفة والطفلة، وبصورةٍ خاصة على يوليان ماستاكوفيتش.

سألتُ بصوتٍ عالٍ تقريباً أحدَ معارفي وكان يقفُ أقربَ من الجميع إلى يوليان ماستاكوفيتش:

– هل هذا السيّد متزوّج؟

رماني يوليان ماستاكوفيش بنظرة حاقدةٍ وثاقبة.

أجاب صاحبي بأسفٍ من أعماق قلبه، بسبب إحراجي المُتَعَمّد له:

– لا.

مررتُ منذ فترة قصيرة بالقرب من الكنيسة؛ أدهشتني الجمهرةُ والحشد. تحدّثوا من حولي عن العرس. كانت السماءُ مُلبدّةً بالغيوم، وبدأ الرذاذُ يتساقط. شققتُ طريقي من خلال الحشد إلى الكنيسة ورأيت العريس. كان رجلاً صغيراً، وكُرويّاً، ومُتخماً ذا كرش، ومزيّناً جدا. ركضَ، وانهمَكَ في الأمر، ووزّعَ الأوامرَ. وأخيرا علا صوتٌ يقول :إنّهم أحضروا العروس. اندفعتُ من خلال الحشد، ورأيت فتاةً رائعةَ الجمال، ما كاد يحلّ ربيعها الأوّل بعد. لكنّ الجميلة كانت شاحبة وحزينة. نظراتُها مشتّتة؛ وبدا لي حتى، أنّ عينيها كانتا محمرّتين جرّاء الدموع التي سكبتاها لتوّهما. أعطت الصرامَةُ العتيقةُ لكلّ مَلمَح من ملامح وجهها أهميةً و وقاراً لجمالها. لكن من خلال هذه الصرامة والأهميّة، ومن خلال هذا الحزن، بدا المظهرُ البريءُ الطفوليُ الأوّل، وعبر عن شيء ما ساذج تماماً، وغير مستقر، وفتيّ، وبدا كما لو أنّه ينشدُ الرحمة لنفسه دون أن يُطلب منه ذلك.

قالوا :إنّها أنهت السادسة عشرة من عمرها لتوّها. نظرتُ إلى العريس، وعرفت فيه فجأة يوليان ماستاكوفيتش، الذي لم أره منذ خمس سنوات تماماً. نظرتُ إليها... يا إلهي! ثم اندفعتُ خارجاً من الكنيسة بأسرع وقت. قيل في الحشد :إنّ العروس غنيّة، وإنّ مهرها خمسمئة آلاف... وبعض قطع القماش...

فكّرتُ وأنا أندفع إلى الشارع– « مع ذلك كان الحساب جيّداً[١]».

[١ – إله الحب.

أنا الجذر

د. سلوى الحلو

أنا الشجر ..أوراق العمر..
نضج الثمر..
يامن تحتفون بالأم
بكلّ عام مرة..
ما مضر لو كان الأمر
على مدى العمر حسن المعاملة..
يا من تحتفون بنا :
كيف تقرؤون حروف الكون
من غير نورنا ؟

هذه آيات الخالق في الكون
أمومة
تقدس المهد ...
تقدس الوعد
نحن الشجر ..نحن الزرع
والثمر..
هزوا اليكم وجد الحنين ..
يهتز ما في الكون ..
وينضج الثمر

طفلة لن تكبرْ

عمار ابراهيم

هي طفلةٌ من سكرْ
على خدها .. الورد قد أزهرْ
والليل إن رأى شعرها
ولىّ وأدبرْ
هي أنثى .... لكنّها لم تكبرْ
تبقى طفلة في ساحات قلبي
تلهو وتتمخترْ
بيدي أداعب جدائل شعرها
ودون الخمر من عينيها أسكرْ
هي طفلة من سكرْ
على شرفات عينيها
بات القمر يسهرْ
تمطر الدنيا إن عبست
وإن ضحكت ...

يصبح الكون أخضر
تخاصمني إن لم ألاعبها
وإن أحضرت لعبة لها
تقول أصبحت أكبرْ
كلّ شيء فيها ...
تفتح وازهرْ
يغار من لون خديها
الورد الأحمرْ
كلّ الزهور تغار منها
ومن رحيق ثغرها تتعطرْ
نعم قد أضحت أنثى
فيها الأنوثة تتفجرْ
لكنها تبقى في ناظري
تلك الطفلة التي لن تكبرْ